

مَجَلة شَهرِيَّة اسْلاميَّة أَدبيَّة

تصدر عن دار التأليف والترجمة، بنارس

المجلد (٤٣)	جمادى الأولى ١٤٣٢ هـ
العدد الرابع	أبريل ٢٠١١ م

المشرف العام

عبد اللّه سعود بن عبد الوحيد

رئيس التحرير

أسعد أعظمي بن محمد أنصاري

☆ عنوان المراسلة:	**صوت الأمة** بی ١ / ١٨ جی، ریوری تالاب، بنارس، الهند THE EDITOR B-18/1-G, Reori Talab, Varanasi - 221010 (India)
☆ الاشتراک باسم:	دار التالیف والترجمة، ریوری تالاب، بنارس، الهند DAR-UT-TALEEF WAT-TARJAMA B-18/1-G, Reori Talab, Varanasi - 221010 (India)
☆ الاشتراک السنوي:	في الهند (١٥٠) روبية، في الخارج (٤٠) دولار بالبريد الجوي، ثمن النسخة (١٥) روبية

☆ تليفون: ٢٤٥٢٢٤١ / ٢٤٥١٤٩٢ ــ ٥٤٢ ــ ٠٠٩١ فاكس: ٢٤٥٢٢٤٣ ــ ٥٤٢ ــ ٠٠٩١

محتويات العدد

الافتتاحية

المملكة العربية السعودية ورعايتها للعلماء المسلمين في الداخل والخارج

(٢)
أسعد أعظمي بن محمد أنصاري

[من مظاهر رعاية المملكة للعلماء المسلمين من الداخل:]

(ج) الثقة بهم والاعتماد عليهم والإنصات إلى نصائحهم وتوجيهاتهم

فمن لوازم طبيعة الوظيفة التي اختص بها العلماء في الدولة أن يكونوا موضع الثقة ومحل الاعتماد وأن تكون كلمتهم مسموعة. وهذا ما نجده فعلا على أرض الواقع، وفيما يلى بعض الأمثلة على ذلك:

لما تم فتح الرياض وتحريرها من آل الرشيد, وانتهى الناس من بيعة الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن، قال الملك مخاطبا والده والعلماء الذين كانوا في المجلس:

"أماوإن أبي وأنتم جميعا قد ألزمتموني بهذه البيعة فأنا أشترط لقبولها ثلاثة شروط:

الأول: أن يكون والدي رقيبا على كل أعمالي وأقوالي، يرشدني إلى مافيه خير الأمة، ويردعني عن كل مايراه ضارا بمصالحها. وأن يحاسبني حسابا عسيرا عن كل خطأ أقع فيه بقصد أو بغير قصد.

الثاني: أن يقوم كل فرد - وبخاصة العلماء - كل اعوجاج فيّ.

الثالث: أن يكون الجميع عونالي فيما يكون فيه صلاح الأمة وخيرها"[1]

وقد أوضح الملك عبدالعزيز في أول بلاغ رسمي وجهه إلى أهل الحجاز:

" أن القرآن الكريم والسنة النبوية وما أقره علماءالإسلام بطريق القياس أو الإجماع ستكون مصادر التشريع "

كما سعى الملك إلى توحيد مصادر الأحكام بتوحيد المذاهب، وذلك بعدة خطوات وعقد اجتماع للعلماء من نجد ومكة المكرمة، واتفق فيه على وقف العمل بالقوانين التي تخالف الشرع, وكان الملك كثير الاستشارة للعلماء فيما ينوبه من أمور.[2]

---

[1] صقر الجزيرة: لأحمد عبدالغفور عطار: ٢/ ٢٧٠.

[2] الملك عبدالعزيز آل سعود، أمة في رجل، للدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ص: ١٢٤.

وفي عهد الملك سعود بن عبدالعزيز لما شعر أهل الحل والعقد في المملكة بضرورة نقل السلطة من الملك سعود إلى أخيه الأمير فيصل لما اقتضته مصلحة البلاد والعباد كان لعلماء المملكة مواقف حكيمة وأدوار إيجابية لحماية الدولة والرعية من الآثار الغير المحمودة التي قد تنتج من مثل هذه الإجراءات، والناظرون في مساعي العلماء في ذلك الوقت يعترفون بحنكتهم السياسية من ناحية، ومن ناحية أخرى يجدون مثالا حيا نادرا لإنصات القادة الكبار في الدولة إلى توجيهات العلماء وإذعانهم لها وإن لم تكن في صالحهم في ما يظهر.

يقول الشيخ محمد المجذوب في ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي:

"وفي مؤتمر العلماء الذي عقدوه في الرياض للبحث في موضوع الإمامة وقرروا فيه إلغاء بيعة المرحوم الملك سعود بن عبد العزيز ومبايعة أخيه فقيد الإسلام والعروبة فيصل بن عبد العزيز، إيثارا للمصلحة العامة التي لم يكن أجدر من فيصل للقيام بأعبائها، أنابوا عنهم الشيخ (محمد) الأمين (الشنقيطي) لإبلاغ قرارهم الملك سعود، فقام بالمهمة خير قيام، وكان لكلمته الحكيمة أطيب الوقع في نفسه، عقب عليها بإعلانه ثقته التامة بنصيحة العلماء وخضوعه لمقرراتهم."[١]

ويقول صاحب السمو الملكي الأمير عبد العزيز بن فهد في كلمة التعزية له على وفاة الشيخ ابن باز رحمه الله:

"لقد ملأ قلبي حب واحترام وتقدير سماحة الشيخ (ابن باز) رحمه الله لكثرة ما يتحدث والدي مولاي خادم الحرمين الشريفين حفظه الله عن مكانة العلماء عامة، وعن هذا الإمام وماله من مكانة في نفسه خاصة، فأورثني ذلك رغبة في القرب من سماحته والأنس بحضوره وزيارة مجلسه بين الحين والآخر، فعلمت عن سماحته بعد اللقاء به فوق ما سمعت من حديث الناس عنه."[٢]

(د) زيارتهم في بيوتهم وتوفير أسباب راحتهم وتكريمهم بشتى الوسائل والأساليب.

والأمثلة على هذا كثيرة معروفة ومشهورة، منها:

يقول الدكتور ناصر بن مسفر الزهراني في ترجمة الشيخ محمد بن صالح العثيمين:

---

[١] علماء ومفكرون عرفتهم، للشيخ محمد المجذوب: ١/١٨٥

[٢] مجلة صوت الأمة، بنارس. ربيع الأول ١٤٢٠هـ ص: ٢٨.

"ولقد قدرولاة الأمر في المملكة العربية السعودية للشيخ (ابن عثيمين) نجاحه الباهر وتقدمه الظاهر، وأنزلوه المنزلة اللائقة به، فلا يذهب ملك أو أمير أو وزير لمحافظة القصيم إلا ويكون من أول مهامه زيارة الشيخ في منزله والسرور بضيافته..."[١]

لما كان الشيخ ابن باز رحمه الله رئيسا للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة زاره الملك فيصل رحمه الله في منزله المتواضع، وأمر ببناء قصر لسماحته يتوافق مع مكانته العلمية ومنزلته الدينية والاجتماعية, وبعد أن تم بناء القصر واكتماله جاءوا إلى سماحة الشيخ رحمه الله ليسجلوا صك القصر باسمه، فرفض ذلك بالكلية وأبى، وقال: يبقى القصر باسم رئيس الجامعة الإسلامية، كل من تولى الرئاسة في الجامعة فالقصر سكن له.[٢]

لما أصيب الشيخ ابن باز في حلقه استمات خادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين في إقناعه بالسفر على حسابهم إلى أمريكا (للعلاج) فأبى غاية الإباء على الرغم من الإلحاح الشديد من قبل الملك فهد رحمه الله.[٣]

وهذا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، قد عرف له أولو الأمر في المملكة مكانته وفضله منذ أيام الملك عبد العزيز، الذي بأمر ملكي خاص أهدى إلى الشيخ هويته السعودية، ولم يكتف بذلك بل أمر بمنح التابعية لكل من يثق به وينتمي إليه، مبالغة في إكرامه.[٤]

(هـ) نصبهم في مناصب عليا:

ومن مظاهر عناية المملكة بعلمائها ورعايتها لهم أنها تسند إليهم مسؤوليات كبيرة وتوكل إليهم مهام عظيمة وتنصبهم في مناصب عليا محترمة، وهؤلاء العلماء يؤدون واجباتهم ويقومون بإنجاز الأعمال الموكولة إليهم على أحسن ما يرام، مما يزيد في ثقة الولاة بهم وتقدير جهودهم، ومن الجهات التي يتولى العلماء مهامها بالمملكة، على سبيل المثال، ما يلى:

١- وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
٢- رابطة العالم الإسلامي
٣- مجلس الشورى
٤- الندوة العالمية للشباب الإسلامي
٥- الجامعات الإسلامية

---

[١] ابن عثيمين: الإمام الزاهد، للدكتور ناصر بن مسفر الزهراني، ص:٨٤
[٢] الدرر الذهبية من عيون القصص البازية. جمع: عبد الرحمن بن يوسف الرحمة، ص:٦١-٦٢
[٣] المصدر نفسه، ص:٧٥
[٤] علماء ومفكرون عرفتهم، للشيخ محمد المجذوب:١/١٨٥.

٦- هيئة كبار العلماء
٧- شؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف
٨- إدارة البحوث العلمية والإفتاء
٩- المؤسسات الخيرية
١٠- جمعيات البر

يجدر بالذكر أن معظم هذه المؤسسات تشتمل على لجان وإدارات كثيرة العدد، والعلماء يتمتعون بعضويتها ويديرونها بتكليف من قادة الدولة.

(و) الترحيب بهم في المجالس واللقاءات:

فقد دأب قادة المملكة على منح مواطنيها فرصة اللقاء بهم والاستماع إلى مسائلهم ومشكلاتهم بغية حل هذه المسائل وإزالة هذه المشكلات، تكون هذه الفرصة متاحة لكافة المواطنين، ويحرص القادة على الجلوس مع أصحاب الفضيلة العلماء يوما في الأسبوع على الأقل، يتعرفون على أحوالهم وسير أعمالهم ويستشيرونهم في ما يعرض لهم من القضايا والمعاملات، وينصتون إلى نصائحهم وتوجيهاتهم.

والعلماء يغتنمون هذه الفرصة لتحقيق أغراض متعددة:

فيقومون بوعظهم وتذكيرهم ومناصحتهم.

ويلفتون أنظارهم إلى ما يرون من أمور الرعية وما ينبغي اتخاذه حيالها.

ويشجعونهم على مواصلة العمل لخدمة الإسلام والمسلمين. الخ

وقد يصاحب علماء المملكة في هذه اللقاءات علماء من الخارج، قدموا لعرض مسائل المسلمين في بلادهم على ولاة المملكة، راجين دعمهم ومساندتهم والوقوف بجانبهم، فيشفع لهم علماء المملكة إلى الحكام، فيظفرون بمطلوبهم.

والناظرفي إعلام البلاد مرئيه ومسموعه ومكتوبه يطلع على الأخبار والمشاهد المتعلقة بهذه اللقاءات بين حين وآخر.

وكذلك يحضر الولاة في الاجتماعات والندوات واللقاءات التي يعقدها العلماء, فيستمعون إلى كلماتهم، وأوراق عملهم وبحوثهم ومناقشاتهم، ويطلعون على جهودهم وإنجازاتهم، ويشجعونهم ويشكرونهم على ما يبذلون من المساعي لخدمة العباد والبلاد.

(يتبع)

***

العلاقات الدولية في الإسلام

(٢-٢) معالي الشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصين

المبدأ الثاني: أن يكون القتال ضد من يقاتل:

قال تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم). [الأنفال: ٦٠-٦١]

وقال تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين). [البقرة: ١٩٣]

قال الإمام الطبري: عن مجاهد (فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) يقول: "لا تقاتلوا إلا من يقاتلكم".

وقال في تفسير قوله تعالى: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين). [البقرة: ١٩٠] عن سعيد بن عبد العزيز قال: "كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة: إني وجدت آية في كتاب الله: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلوكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) أي: لا تقاتل من لا يقاتلك". ورد الطبري على من قال بنسخ الآية بقوله: "وأولى هذين القولين بالصواب القول الذي قاله عمر بن عبد العزيز، لأن دعوى المدعي نسخ آية يحتمل أن تكون غير منسوخة بغير دلالة على صحة دعواه تحكّم، والتحكم لا يعجز عنه أحد".

وقال تعالى: (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا). [النساء: ٩٠]

قال ابن كثير: "أي: فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك". وقال تعالى: (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا). [النساء: ٩١]

فسّر ابن كثير (السلم) بالمسالمة والمهادنة والمصالحة.

وقال تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم). [الممتحنة: ٨-٩]

المبدأ الثالث: عدم تجاوز ضرورات الحرب:

وهذا المبدأ قيد على قاعدة "المعاملة بالمثل"، فلا خيار للمسلم في عدم الالتزام بالمعايير الأخلاقية الإسلامية في معاملة العدو، وإن كان العدو لم يلتزم بها، ولا خيار للمسلم في عدم الوقوف عند حدود الله، وإن كان عدوه المحارب تجاوز هذه الحدود، فإذا مثل محاربو المسلمين بقتلى المسلمين فلا يجوز للمسلمين معاملتهم بالمثل، وإذا قتل الأعداء نساء المسلمين وصبيانهم أو غير المقاتلين منهم فلا يجوز للمسلمين أن يقتلوا نساء الأعداء أو صبيانهم أو غير المقاتلين منهم.

وقد أفاض المفسرون عند تفسيرهم للآية السابقة: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) في ذكر ما ورد من النصوص عن الرسول ﷺ وخلفائه تطبيقا لهذه الآية.

من ذلك ما روى مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان [إذا بعث جيشا] يقول: "اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الوليد، ولا أصحاب الصوامع".[١]

وروى مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد أن أبا بكر الصديق بعث جيوشا إلى الشام فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان... فقال: "إنك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له... وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلا ولا تفرقنه ولا تغلل، ولا تجبن".[٢]

قال الطبري: "عن يحيى الغساني قال: كتبت إلى عمر بن عبد العزيز أسأله عن قوله تعالى: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) قال: فكتب إليّ أن ذلك في النساء والذرية، ومن لم ينصب لك الحرب منهم".

وعن ابن عباس في تفسير الآية: "يقول: لا تقتلوا النساء ولا الصبيان ولا الشيخ الكبير، ولا من ألقى إليكم السلم وكفّ يده، فإن فعلتم ذلك فقد اعتديتم".

---

[١] صحيح مسلم، رقم: ١٧٣١.

[٢] الموطأ، رقم: ١٢٩٢، قال الشوكاني: (أثر يحيى بن سعيد مرسل).

وروى الطبري عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) قال: "يقول: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم".

وقال ابن كثير في تفسير الآية الكريمة (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) [المائدة:٢]: "معناها ظاهر، أي: لا يحملكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن المسجد الحرام... على أن تعتدوا حكم الله فيهم، فتقتصوا منهم ظلما وعدوانا، بل احكموا بما أمركم الله من العدل في حق كل أحد...

وهذه الآية كما سيأتي في قوله: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا) أي: لا يحملكم بغض قوم على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد لكل أحد في كل حال".

وقال الإمام القرطبي في تفسير الآية الكريمة (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا): "دلت الآية أيضا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه... وأن المثلة بهم غير جائزة، وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك فليس لنا أن نقتلهم بمثله، قصد الإيصال الهم والحزن إليهم".

وقال في تفسير قوله تعالى: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا) "قال ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد: هي محكمة، أي: قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم".

وقال عمر بن الخطاب: "اتقوا الله في الذرية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب".
وكان عمر بن عبد العزيز لا يقتل حراثا.

ويدل تاريخ الإسلام في كل العصور على أن المسلمين الملتزمين طبقوا هذا المبدأ دون استثناء.

٢- في حالة السلم:

أبرز مظهر للعلاقات الدولية في حالة السلم المعاهدات. وقد عني القرآن في زهاء ثلاثين موضعا منه بالتأكيد على وجوب وفاء المسلم بالعهد وتحريم الإخلال به.

على سبيل المثال قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود). [المائدة:١]

قال ابن كثير: "(أوفوا بالعقود) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني بالعقود العهود. وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك".

قال: "(والعقود) ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره".

وعن ابن عباس [في تفسيرها]: "لا تغدروا ولا تنكثوا".

وقال تعالى: (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا). [الإسراء:٣٤]

وقال تعالى: (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين). [التوبة: ٧]

وقال تعالى –في ذكر صفات المفلحين-: (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون). [المؤمنون: ٨، والمعارج: ٣٢]

وقال تعالى: (بلى من أوفى بعهده، واتقى فإن الله يحب المتقين). [آل عمران: ٧٦]

وقال تعالى: (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا). [البقرة: ١٧٧]

وقال تعالى: (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق). [الرعد: ٢٠]

وقال تعالى –عن الناكثين-: (والذين ينقضون عهد الله من بعده ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار). [الرعد: ٢٥]

وأكد القرآن أنه حتى في حالة ظهور شواهد نقض العهد من الطرف الثاني، واضطرار المسلمين الذين أبرموا العهد اضطرارهم بسبب ذلك إلى إنهاء العهد، فإنه لا يجوز لهم استغلال هذا الإنهاء لتحقيق مصلحة لهم على حساب الطرف الثاني، بل يجب أن يتم إنهاء العقد في وضع من التوازن بين الطرفين.

قال تعالى: (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين). [الأنفال: ٥٨]

وروى الترمذي وأبو داود عن سليم بن عامر قال: كان بين معاوية والروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا انقضى العهد غزاهم. فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: "الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر"، فنظروا فإذا هو عمرو بن عبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمده، أو ينبذ إليهم على سواء)". فرجع معاوية بالناس.[١]

والعقود في الإسلام على العموم واجبة الاحترام، ويجب الدخول فيها بنية الوفاء بشروطها مهما تغيرت الظروف، ولكن المعاهدات الدولية في الإسلام لها تميز في هذا، فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: "لكل غادر لواء يوم القيامة، يرفع له بقدر غدره، ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة".[٢]

والفقهاء وهم يرون أن الجهاد يكون مع الأمير الصالح والفاسق، يذهب أكثرهم إلى أن الجهاد لا يكون مع الأمير الذي لا يلتزم الوفاء بالعهود.

---

[١] أبو داود، رقم: ٢٧٥٩، وصححه الألباني.

[٢] صحيح مسلم، رقم: ١٧٣٨.

وعلى خلاف القانون الدولي في الحضارة المعاصرة فإن تغير الظروف لا يبرر نكث العهد، وحتى إذا عجز المسلمون في ظروف معينة عن الوفاء بالتزاماتهم يجب عليهم مراعاة التزامات الطرف الثاني.

ومن هذا الباب القصة المشهورة أيضا عندما استولى القائد المسلم أبو عبيدة بن الجراح على حمص ثم اضطر إلى الانسحاب منها فردّ الجزية التي أخذها من السكان، وقال: إننا أخذنا الجزية مقابل حمايتكم، وما دمنا الآن لا نستطيع أن نحميكم فقد وجب أن نردّها.

والأمثلة كثيرة من هذا النوع في التاريخ الإسلامي.

فتغيّر الظروف، والمصلحة القومية لا تبرّر في الإسلام نقض العهد، كما لا يبرّره أن يرى المسلمون أنفسهم في مركز القوة تجاه الطرف الثاني. وقد ورد النص الصريح في القرآن يؤكد ذلك، قال تعالى: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون، ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به). [النحل: ٩١–٩٢]

ثم يقول بعد ذلك: (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون). [النحل: ٩٥]

مما له دلالة أن نتذكر أن الآيات القرآنية نزلت بالتشديد على المسلمين بالوفاء بالعهد في وقت وفي بيئة لم تكن القاعدة فيهما الوفاء بالعهود، يقدم لنا القرآن صورا لهذه البيئة في قوله: (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون). [الأنفال: ٥٥–٥٦]

وقال تعالى: (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين، كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون، اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون، لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون). [التوبة: ٧–١٠]

وقال عن اليهود: (أوكلما عاهدوا عهدا نبذه، فريق منهم). [البقرة: ١٠٠]

وبالرغم من إيقان المسلمين بأنه لا خيار لهم في عدم الوفاء بالعهد تحت أي ظرف، وبالرغم من معرفتهم أن الطرف المقابل لا يحمل مثل هذا الالتزام، إلا أنهم كانوا – كما يظهر ذلك تاريخ الإسلام – يقبلون على إبرام العهد تفاديا للحرب كلما كان ذلك ممكنا بصرف النظر عن عدم تعادل الشروط.

ومعاهدة الحديبية بالرغم مما تضمنته من شروط تبدو للوهلة الأولى مجحفة في حق المسلمين، مثل بارز في هذا.

ومثل آخر بارز في العهد العمري بين المسلمين والفلسطينيين سكان إيلياء. فبعد انتصار المسلمين على الروم في معركة اليرموك الفاصلة، وهزيمة جيش أرطبون كانت فلسطين مفتوحة أمام جيش المسلمين ولم يكن شيء يحول بينهم وبين الاستيلاء على إيلياء عنوة، فلما عرض السكان إبرام معاهدة الصلح لم يتردد المسلمون في قبولها، بالرغم من اشتراط الفلسطينيين شرطا غير عادي، وهو أن يحضر الخليفة نفسه – في سفر لمدة شهر – ليوقع المعاهدة، والذي يقرأ المعاهدة الآن خالي الذهن من ظروف إبرامها لا يتوقع أبدا أن تكون معاهدة بين جيش منتصر وجيش مهزوم.

ومن المناسب ذكر جزء من المعاهدة، فهي تجري هكذا: "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ... وعليهم أن يخرجوا الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن ... ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله إلى الروم ويخلي بينهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم".

ليتذكر القارئ أنه وقت كتابة العهد المشار إليه كانت الحرب لا تزال قائمة وعلى أشدها بين المسلمين والروم.

هل منهج الإسلام في العلاقات الدولية واقعي؟

قد يخيّل لشخص يعيش في هذا العصر أن منهج الإسلام في العلاقات الدولية وما يقتضيه من مبادئ حاكمة، منهج مثالي ليس قابلا للتطبيق في عالم الواقع، ولكن يرد هذا أنه بالرغم من أن هذا المنهج كان يطبق من جانب واحد فقد طبقه المسلمون كما يشهد تاريخهم على مساحة واسعة من الزمان والمكان.

صحيح أن تطبيق المبدأ الثاني من مبادئ الحرب لم يظهر بالوضوح الكافي بسبب أن حالة الحرب الدائمة في العالم كانت حينذاك هي القاعدة. وصحيح أن المبدأ الأول وجد الإخلال به عدة مرات بخاصة في الحروب بين الجماعات أو الدويلات الإسلامية، ولكن هذه الحروب لم تعتبر قط جهادا.

***

تصحيح المفاهيم

التناقضات التي تسترعي الانتباه في كتابة أحوال الدكتور محمد حميد الله

د. محمد عمران الأعظمي
مصحح دائرة المعارف العثمانية

الحمد لله فاطر السماوات والأرض، جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، والصلاة والسلام على البدر الطالع من ثنيات الوداع، وعلى آله وأصحابه ومن اتبعه خير أتباع، وبعد: فلا يختلف اثنان في أن الكتابة حول شخصية فذة كالدكتور حميد الله رحمه الله ليست سهلة ميسورة، بل هي مسؤولية جسيمة تنكسر لها الخواصر، وتذوب بها الخواطر، فلا يتضلع بها إلا من كان مقداما مشناقا، ولسمو الهمة مصداقا، متوخيا للدقة والعناية، راعيا لمبادئ الكتابة والتسجيل كل الرعاية، ومن حسن حظي أني قرأت جانبا كبيرا من أحوال الدكتور، على مر السنين والشهور، واسترعى انتباهي ما ألفيت في تلك الكتابات من التناقض، والتنافي والتعارض، وإذا لم تكن هي مداهنات مطبعية فهي أخطاء فادحة، للمستوى المطلوب قادحة.

أما التناقضات الموجودة في تاريخ ميلاده حسب التقويم الهجري فقد كتب الدكتور حسن الدين أحمد "إن رسائل الدكتور تفيد بأنه ولد في محرم سنة ست وعشرين وثلاث مائة بعد الألف" أي ما يوافق سنة ثمان وتسع مائة بعد الألف الميلادي، ولم يحدد الكاتب اليوم واقتصر على الشهر والسنة، وأما الأستاذ/عبد الرحمن مؤمن والأستاذ/خورشيد أحمد فقد اتفقا على أن تاريخ ميلاده سادس عشر محرم سنة ست وثلاثين، وهذا الخطأ ربما يكون تطرق من قلة شعور قارئ الملازم بالمسئولية، فإن تاريخ ميلاده الصحيح هو: سادس عشر محرم سنة ست وعشرين، كما اتفق عليه شاه بليغ الدين والأستاذ/عبد القيوم قريشي، وشاه بليغ الدين لقد تفرد بذكر يوم ميلاده وهو يوم الأربعاء. والعجب كل العجب من الأستاذ/خورشيد أحمد – إذا رفضنا جواز الخطأ المطبعي – أنه ذكر في أخريات مقاله أن الدكتور لقد عاش خمسة وتسعين عاما في هذا العالم الزائل، فمن ولد عام ست وثلاثين وثلاثمائة بعد الألف الهجري ولحق بالرفيق الأعلى في غضون عام اثنين وعشرين وأربع مائة بعد الألف من نفس التقويم كيف تمتد حياته على خمسة وتسعين عاما والحساب بسيط لغبي أو نشيط.

وأما تاريخ ميلاده حسب التقويم الميلادي فإن الدكتور حسن الدين أحمد في مقال له آخر، والأستاذ عبد الرحمن مؤمن والأستاذ/خورشيد أحمد والأستاذ/عبد القيوم قريشي وخاجا عبيد الله كلهم اتفقوا على أنه كان تاسع عشر فبراير سنة ثمان وتسع مائة بعد الألف، ولكن شاه بليغ الدين وافقهم على الشهر والسنة وخالفهم في اليوم، وحسب نصه "إن تذكرة القرآن التي ألفها الدكتور نفسه فتأريخ ميلاده على الصفحة الخامسة والثلاثين منها هو السادس عشر من محرم سنة ست وعشرين، الذي يوافق حسب تقويم ديغلوت (المطبوع في دار الطبع الرسمي حيدر آباد) اليوم الثامن عشر من فبراير من السنة المذكورة" هكذا وقع فرق يوم واحد.

فهذه هي الأقوال المتضاربة بشأن تاريخ ميلاده حسب التقويم الهجري والميلادي، ولم يتوقفوا لهذا الحد، بل اطردوا إلى الاختلاف في مبلغ عمره، فلقد كتب الأستاذ خورشيد أحمد أنه توفي وعمره خمسة وتسعون عاما بينما كتب الأستاذ عبد الرحمن مؤمن أنه توفي وعمره أربعة وتسعون عاما.

وإن جميع كتاب سيرته أو المترجمين له لقد اقتصروا على أنه ولد في حيدر آباد الدكن ولكن الأستاذ/عبد الرحمن مؤمن لقد أضاف أن الدكتور ولد في حي "كاتال ماندي" من أحياء حيدر آباد، وادعى شاه بليغ الدين أن الدكتور ولد في بيت آبائه، الكائن في "فيل خانه"، وقال عن بيته في "كاتال ماندي" "الأغلب أن والد الدكتور اشتراه وسماه "خانه خليل" فهل كان كاتال ماندي في منطقة فيل خانه؟

وكتب شاه بليغ الدين أن الدكتور له أخوان وأختان، وكان الدكتور أصغر من الأخوين وأخت، وسمى الأخوين حبيب الله وصبغة الله، والأخت الكبرى أمة العزيز، والصغرى حبيبة الرحمن، بينما الأستاذ عبد الرحمن مؤمن ذكر أن الدكتور له أخوان وخمس أخوات، والدكتور كان أصغرهم جميعا.

وذكر الدكتور حسن الدين أحمد وشاه بليغ الدين أن الدكتور التحق بقسم الدينيات في الجامعة العثمانية سنة ثلاث وعشرين وتسع مائة بعد الألف، ولكن الأستاذ عبد الرحمن كتب أنه التحق بالجامعة العثمانية سنة أربع وعشرين.

وكتب الأستاذ عبد الرحمن مؤمن أن الدكتور نجح في امتحان الثانوية كمرشح خاص بينما كتب شاه بليغ الدين أنه نجح في الثانوية من دار العلوم.

وكتب الدكتور حسن الدين أحمد أن الدكتور حميد الله تلقى تعليمه البدائي في دار العلوم والجامعة النظامية والتحق بالجامعة العثمانية عام ثلاثة وعشرين وكتب/شاه بليغ الدين أيضا أنه التحق بالجامعة العثمانية عام ثلاثة وعشرين وكتب الأستاذ عبد الرحمن مؤمن أنه تعلم في دار العلوم في البداية حتى الصف السادس ثم التحق بالجامعة النظامية، ونجح فيها في امتحان المولوي الكامل عام أربعة وعشرين، والتحق في نفس العام بالجامعة العثمانية، ففي تاريخ التحاقه بالجامعة العثمانية فرق سنة واحدة فيما بينهم.

وكتب شاه بليغ الدين أن الدكتور نال شهادة "دي فل" من جامعة بون ألمانيا سنة اثنتين وثلاثين، بينما الشيخ رضوان أحمد القاسمي يستبعد هذا التاريخ ويبرهن على أنه يكون نال الشهادة المذكورة سنة ثلاث وثلاثين.

وكتب الدكتور حسن الدين أحمد أن الدكتور حميد الله لقد نال شهادة الدكتوراه على أساس الوثائق السياسية من جامعة باريس عام ثلاثة وخمسين وتسع مائة بعد الألف. وهنا كل إمكانية أن عدد خمس وثلاثين انقلب إلى ما ذكرناه، وشاه بليغ الدين ذكر عام ظفره بالدكتوراه، أنه خمسة وثلاثون، بينما كتب الأستاذ عبد الرحمن مؤمن أنه نال الدكتوراه عام ستة وثلاثين.

وأما تضارب أقوالهم في عدد اللغات التي تُرجِم فيها القرآن (أي كتابه القرآن في كل لسان) فبعضهم يقول: تُرجِم في مائة وخمس وعشرين لغة، وبعضهم يدعي: في مائة وعشرين لغة، ويقول الدكتور حسن الدين أحمد أن عدد اللغات في الطبعة الرابعة بلغ أربع مائة لغة، فيرتفع الخلاف بأن هذه الأعداد إنما ترجع إلى فترات زمنية متعددة.

وإنما يستفحل اختلافهم في تحديد عدد مقالاته وبحوثه، فالأستاذ خورشيد أحمد يقول: إن عدد مقالاته ينوف على المائة، وعدد مؤلفاته الصغيرة والكبيرة هو مائة وخمسون كتابا، بينما الدكتور حسن الدين أحمد يدعي أن عدد مقالاته خمسون وتسع مائة وألف مقال (أي ما يقارب عشرة آلاف صفحة)، وعدد مؤلفاته أربعة وستون ومائة، وشارك الآخرين في بعض الكتب، أي ما يقارب عشرين ألف صفحة، وإذا قمنا بإعداد قائمة ما ألف في سبع لغات ربما غطى عشر مجلدات، هذا وكتب شاه بليغ الدين أن عدد مقالات الدكتور حسب بيان الدكتور نفسه ينوف على ألف، وعدد مؤلفاته أربعة وستون ومائة، ويكشف القناع عن نقطة هامة في هذا

الخصوص ويضيف: وفي رسائله يوجد بعض النقص والزيادة في العدد، وعلى هذا فلا اضطراب في عدد مؤلفاته، ولكن الفرق في عدد مقالاته بين مائة وألف لفرق كبير يستوقف القارئ تماما.

وكتب السيد /ام. اتش. عسكري أن الدكتور توجه إلى أوربا لنيل التعليم العالي في جامعاتها في العشرة الثانية من هذا القرن، وكيف يمكن هذا إذ أنه تحصل في الجامعة العثمانية عام ثلاثين وتسع مائة بعد الألف، فالصحيح في هذا الباب أنه غادر البلاد في بداية العشرة الرابعة كما صرح به الكتاب الآخرون.

وكتب الدكتور عفان سلجوق أن الدكتور ما زال ثاويا في باريس منذ بداية الخمسينات بينما سجل الآخرون عام ثمانية وأربعين في باب حلوله وإقامته في باريس.

والذي يبعثنا على الاستغراب بصفة خاصة هو اختلافهم في بيان شقة الدكتور في باريس، بينما كل واحد منهم لقد زار الدكتور في تلك الشقة، وتمتع فيها ولو لمدة قليلة بضيافة الدكتور ومحادثاته، ورؤية ملابساته، وبالرغم من أنهم شاهدوا الشقة المذكورة بأم أعينهم وفي ضوء النهار الساطع وتكلفوا حتى بعدّ السلاليم المؤدية إلى شقة الدكتور بأنها مائة وعشرون سلما، ووصفها بعضهم بأنها خشبية، ومع ذلك فلم يتفقوا على رقم الطابق الذي تقع فيه الشقة، فقد كتب الدكتور أحمد عبد القدير أنه صعد السلاليم وضغط على جرس الباب في الطابق الرابع، وكتب الدكتور رضوان علي الندوي أن الناس أفادوه في باريس أن الدكتور إنما يسكن في الطابق الرابع من البناية الفلانية وكتب الأستاذ /عبد الرحمن مؤمن أيضا أن الدكتور كان يسكن في الطابق الرابع والأخير من البناية، وكتب الأستاذ خورشيد أحمد أيضا أن الشقة التي استأجرها الدكتور في باريس كانت في الطابق الرابع حيث لا توجد المصاعد، بينما كتب ام. اتش. عسكري أن الدكتور يسكن في الطابق السادس، وكتب شاه بليغ الدين أن الدكتور استأجر غرفة صغيرة على الطابق الثالث أو الرابع: والدكتور نفسه كان يكتب في بداية عنوانه رقم: ٤.

ولم يتوقفوا على اختلاف الطابق بل اختلفوا في وصف البناية فقد وصفها شاه بليغ الدين والأستاذ عبد الرحمن مؤمن بأنها قديمة، وقال الدكتور رضوان علي الندوي: إنها بناية قديمة قوية، ووصف السيد ام. اتش. عسكري البناية بأنها متناهية في الضعف والتقادم.

وقال الدكتور حسن الدين أحمد في معرض الإلمام بالوقائع التي استخرجها من رسائل الدكتور: إن الشقة لقد تم إخلاؤها في ديسمبر عام ثلاث وتسعين، وادعى شاه بليغ الدين أن تلك

الغرفة ما زالت في قبضة الدكتور بعد، وأن كتبه وأمتعته موضوعة هنالك، حتى وأن بريده إنما يصل على نفس العنوان بينما هو مقيم في أميركا، وهذا الحديث يرجع إلى سنة ست وتسعين فصاعدا.

وكذلك اختلفوا في مشيته فقد كتب شيخ حيدر المحامي أنه كان يمشي الهوينا، وأنه لم ير الدكتور طيلة حياته ماشيا في سرعة، وكتب الدكتور عفان سلجوق: وكان الدكتور يمشي في سرعة حتى أني كنت أواجه الصعوبة في أن أسايره، وإنما يرتفع الخلاف إذا قلنا: إن السرعة والبطء في المشي خاضعتان لعلل وأسباب.

وبالإضافة إلى هذه التناقضات فقد صدرت من الكاتبين أخطاء عديدة يأتي على رأسها التوفيق بين السنين الهجرية والميلادية فعلى سبيل المثال كتب شاه مصباح الدين شكيل: أن الدكتور لقد أغمي عليه وهو في صلاة الجمعة في المسجد الجامع بباريس وذلك في غضون رمضان سنة سبع عشرة وأربع مائة بعد الألف، وكتب مصباح الدين التاريخ الموافق الميلادي بين الحاصرتين وهو (تاسع عشر يناير سنة ست وتسعين وتسع مائة بعد الألف) فالسنة الميلادية صحيحة، لأن ام. اتش. عسكري – هو الآخر – كتب بأنه علم بأن الدكتور لقد تعرض لإغماءة وهو يصلي الجمعة في المسجد، وذلك في يناير من العام المنصرم أي ستة وتسعين، واستطرد أيضا: كتبت سديدة إلى ممتاز مظهر قريشي في أغسطس سنة ست وتسعين أن صحة جدها لقد تحسنت، فالعام الهجري – والحالة هذه – لا ينسجم مع رمضان سنة سبع عشرة، بالسنة ست عشرة، فإن سنة ست وتسعين حسب التقويم السعودي (ويمكن فارق يوم أو يومين) إنما انتهت في شعبان سنة سبع عشرة، ولكن الأيام العشرة الأخيرة من يناير سنة ست وتسعين إنما وقعت في رمضان سنة ست عشرة.

وأما محمد كمال الدين – وهو من ذوي قربى الدكتور – فإنه صبّ مجهودا كبيرا في تسجيل أعمال الدكتور العلمية، ولكنه جانب التصدي الميداني، فبعض ملاحظاته حول أعمال الدكتور العلمية لا تتفاعل مع الواقع، فمثلا كتب محمد كمال الدين: "إن الدكتور لقد بحث في مكتبة مجتهد شيعي في لكناو واستخرج لا واحدا بل اثنين من كتب محمد بن حبيب: كتاب المحبر وكتاب المنمق، وقام الدكتور بتصحيحه وطبعته دائرة المعارف".

أما استخراج كتاب المحبر من المكتبة المذكورة فلا يمتّ إلى الواقع بأية صلة، لأن الدكتور حميد الله نفسه كتب في كلمة الختام "قد تم بعون الله الودود طبع كتاب المحبر الأنيق الذي لم يصل إلينا إلا نسخة واحدة خطية، وهي محفوظة في خزانة كتب المتحف البريطاني بلوندرا ولا يعرف له نسخة غيرها في جميع العالم".

انتهت عبارة الدكتور محمد حميد الله بدون وكس ولا شطط، وهي تبرهن في كل وضوح أن نسخة المحبر الوحيدة هي محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني لا غيرها.

وكتب محمد كمال الدين: إن الدكتور قام بتصحيحه، والواقع أن على غلاف المحبر تبدو هذه العبارة "وقد اعتنت بتصحيح هذا الكتاب الدكتورة الآنسة إيلزه ل. ش. إحدى العالمات بأميركا" فالصحيح أن الدكتور لقد بدأ التصحيح، ولما عرف أن الآنسة المذكورة لقد فرغت من تصحيح الكتاب أعلم أصحاب الدائرة بذلك، وتمام القصة لقد ذكرها الدكتور بقلمه في كلمة الختام التي جمع فيها كل تفاصيل الكتاب، ولا ننكر على أية حال مشاركة الدكتور في تصحيح هذا الكتاب.

وأما استخراج كتاب المنمق من مكتبة المجتهد الشيعي بلكناو فلم يحرز الدكتور فيه قصب السباق إذ سبقه إلى ذلك غيره كما يبدو من مقدمة المصحح لكتاب المنمق، وهو خورشيد أحمد فارق أستاذ آداب اللغة العربية بجامعه دلهي، وحسب نصه وفصه: "وفي سنة خمس وعشرين وتسع مائة بعد الألف فقد سمع بعض رجال العلم في الهند عن المنمق من بينهم الأستاذ الميمني والسيد سليمان الندوي فزاروا مكتبة المجتهد المذكور وقرأوا المنمق وعرفوا ما احتواه من المعارف القيمة".

وكتب محمد كمال الدين عن تاريخ البخاري المسمى بالتاريخ الكبير: "لقد طبعت دائرة المعارف ثلاثة أجزاء منه ولم يوجد الجزء الرابع الأخير في أي مكان فبحث الدكتور عنه واستخرجه بعد جهود دامت أسابيع".

هذه كتابة عشوائية لم يوفق الكاتب فيها لتقصي الحقائق، فالكتاب في أربعة أجزاء وكل جزء يحتوي على قسمين، ومن أعجب العجاب أن دائرة المعارف إنما طبعت أولا الجزء الرابع بقسميه كما يبدو من خاتمة الكتاب، وذلك سنة إحدى وستين وثلاث مائة وألف من الهجرة، وأما الأجزاء الثلاثة الأول فقط طبعت في السنوات المتلاحقة كما يبدو من أغلفتها، والواقع أن

الجزء الثالث لم يطلع عليه أهل الدائرة، ولقد كتب مصحح هذا الجزء مولانا الكبير أبو الوفاء الأفغاني رحمه الله خاتمة الطبع وها هو نصها: "وبعد فبشرى لك أيها الأخ الكريم أن المجلد الثالث من التاريخ الكبير قد لبس الآن حلية الطبع وتزين بها بعد ما يئس منه طالبوه، فياطوبى لمن ظفر به من أصحابنا (حفظه الله) في مكتبة كوبرولو بالآستانه" ومع أن الشيخ الأفغاني لم يذكر اسم محمد حميد الله صراحة، ولكن كل الدلالة تشير إلى أن الدكتور حميد الله هو الذي قام باستخراج هذا المجلد من مكامن مكتبة كوبريلو.

وجانب آخر من الصورة أن الكاتبين كما عزوا إليه ما لم يقم به، نسوا إسهامه الجبار في اكتشاف بعض الكتب النادرة فلولاه لما خرج عن دائرة الإمكان اختفاء تلك الآثار ليومنا هذا، وعلى سبيل المثال فقد كتب أصحاب مكتبة كوبرولو على ناصية كتاب "مصنف ابن أبي شيبة" بينما كان أصل الكتاب "سنن سعيد بن منصور" وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور معاصران، فاختلط الأمر بينهما على من قام بإعداد الثبت، ولكن الدكتور حميد الله فرق بينهما وميز المجلدات بعضها من بعض، وهذا أمر – حسب قوله – لا يصعب على من حرفته الورقة وخدمة العلم، ومن أراد الاطلاع على هذا في كل بسط وتفصيل فليراجع حكاية الاكتشاف بقلم الدكتور نفسه في بداية سنن سعيد بن منصور تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.

وعصارة الكلام أن من واجب المعتنين بخدمات الدكتور حميد الله أن يصبوا جهودهم على توحيد أحواله، لا يختلف بيان زيد عن بيان عمرو، فإن الواقع أن عجلات الزمان كلما دارت، وكلما تطاول العهد على وفاته، تلاشت قوى الباحثين وخمدت شعلة التحقيق وأصبح تقصي الحقائق من الصعوبة بمكان، وأما في الوقت الراهن فإن عارفيه وذويه كثير وهم أعلم بأحواله وأخبر بأسراره، فتقلّ إمكانية تطرق الخطأ في سرد سيرته وتحديد ميرته، فياحبذا لو وجد اقتراحي هذا المتواضع آذانا صاغية وقلوبا واعية، وأجرهم على الله وما عند الله خير وأبقى.

***

بحوث ودراسات

كيفية التعامل مع أهل الكتاب في ضوء الكتاب والسنة

(٥-٥) الشيخ الدكتور عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني

التعامل مع النصارى

المبحث الأول: حثهم على العمل بما في الإنجيل

إن من أهم التوجيهات التي خاطب الله تعالى بها النصارى في القرآن الكريم حثه إياهم على العمل بما في الإنجيل: الكتاب المنزل على نبيه عيسى –عليه السلام-: (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون).[١]

فقوله –سبحانه-: (وليحكم)، فيه قراءتان:

الأولى: وعليها قُراء الحجاز والبصرة وبعض الكوفيين: بسكون اللام (وليحكم) على وجه الأمر من الله –تعالى– لأهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله –تعالى فيه من أحكامه.

والثانية: وقرأ بها جماعة من الكوفة: (وليحكم) بكسر اللام، بمعنى كي يحكم أهل الإنجيل، ومعنى ذلك: وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور، ومصدقا لما بين يديه من التوراة، وكي يحكم أهله بما فيه من حكم الله –تعالى-.[٢]

والقراءتان كلتاهما دالتان على وجوب عمل النصارى بما في الإنجيل، وليس ثمة داع إلى التكلف بالقول: إنه أمر لمن كان الإنجيل الحق موجودا عندهم أن يحكموا بما أنزل الله فيه، وأن قوله: (وليحكم) أمر لهم قبل مبعث النبي ﷺ، وإنما القول في الإنجيل كالقول في التوراة، وقد قال –جل شأنه-: (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم، سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين، وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين، إنا

[١] المائدة (٤٧).

[٢] "جامع البيان" (٦/٣٦٥).

أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون).[١]

فقوله: (وليحكم) أمر من الله – تعالى -، أنزله على لسان محمد ﷺ لمن كان موجودا حينئذ، أن يحكموا بما أنزل الله تعالى في الإنجيل، والله تعالى أنزل في الإنجيل الأمر باتباع محمد ﷺ، كما أمر به في التوراة، فليحكموا بما أنزل الله تعالى في الإنجيل مما لم ينسخه محمد ﷺ كما أمر أهل التوراة أن يحكموا بما أنزله مما لم ينسخه المسيح، وما نسخه فقد أمروا فيه باتباع المسيح، وقد أمروا في الإنجيل بإتباع محمد ﷺ كما قال تعالى: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل).[٢]،[٣]

المبحث الثاني: دعوتهم إلى الإسلام بأدب

إن النصارى من أوائل من تجب دعوتهم من أهل الكتاب إلى الدخول في الإسلام، كما هو منهج القرآن الكريم، إذ يقول – سبحانه -: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون).[٤]

ولقد كان هذا المنهج القرآني هو منهج النبي ﷺ، فقد سارع بدعوة رؤساء النصارى إلى الإسلام.

جاء في رسالته ﷺ إلى هرقل عظيم الروم:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك

---

[١] المائدة (٤١–٤٧).

[٢] الأعراف (١٥٧).

[٣] "دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية" جمعه د/محمد السيد الجليند (٥٢/٢)، وانظر: "جامع البيان" (٣٦٤/٦)، و"معالم التنزيل" (٤٢/٢)، و"تفسير القرآن العظيم" (٦٥/٢).

[٤] آل عمران (٦٤).

مرتين. فإن توليت فعليك إثم الأريسيين: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[١]،[٢]

وجاء في (صحيح مسلم) في كتاب الجهاد، باب كتاب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله –عز وجل-، ثم ذكر حديث أنس –رضي الله عنه– أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى. وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ.[٣]

وهكذا بلّغ رسول الله ﷺ ما أمره به ربه سبحانه، وظل هرقل على كفره، فمزق الله ملكه، وأسلم النجاشي، وخضع للحق، فاستمر ملكه، وأيده الله تعالى بنصره وتوفيقه، قال النووي: "إنما شح هرقل في الملك ورغب في الرياسة، فآثرها على الإسلام، وقد جاء ذلك مصرحا به في (صحيح البخاري)، ولو أراد الله –تعالى– هدايته لوفقه كما وفق النجاشي، وما زالت عنه الرياسة".[٤]

ومما تفيده رسالته ﷺ إلى هرقل التوقي في المكاتبة، واستعمال الورع فيها، فلا يفرط ولا يفرّط، ولهذا قال النبي ﷺ: "إلى هرقل عظيم الروم" فلم يقل: (ملك الروم) لأنه لا ملك له ولا لغيره إلا بحكم دين الإسلام ولا سلطان لأحد إلا لمن ولاه من أذن له رسول الله ﷺ بشرط، وإنما ينفذ من تصرفات الكفار ما تنفذه الضرورة، ولم يقل "إلى هرقل" فقط، بل أتى بنوع من الملاطفة فقال: "عظيم الروم" أي الذي يعظمونه ويقدمونه، وقد أمر الله تعالى بالإنابة لمن يُدعى إلى الإسلام، فقال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)[٥]، وقال تعالى: (فقولا له قولا لينا)[٦]، وغير ذلك".[٧]

ولقد تميز هذا الدين بأنه لا يكره أحد على الدخول فيه: (لا إكراه في الدين)[٨]، وقد اعترف الغرب أنفسهم بهذه الميزة العظيمة من أخلاق الإسلام، كما يقول أحد كبار المستشرقين

---

[١] آل عمران (٦٤).

[٢] أخرجه البخاري (٧/١)، ومسلم (٣/١٣٩٣)، والأريسيون: هم الفلاحون، أي: عليه إثم رعاياه الذين يتبعونه. "الديباج على صحيح مسلم" (٤/٣٨٢).

[٣] أخرجه مسلم (٣/١٣٩٧).

[٤] "شرح النووي على مسلم" (١٢/١٠٧).

[٥] النحل (١٢٥).

[٦] طه (٤٤).

[٧] "شرح النووي على مسلم" (١٢/١٠٨).

[٨] البقرة (٢٥٦).

البرطانيين، وهو سير توماس أرنولد: "لم نسمع أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي".[١]

ويقول النصراني الهندي الذي أسلم بعد وهو بشير أحمد شاد: "لم يحدث قط في حياتي أن لقيت أو سمعت عن رجل واحد من غير المسلمين أكره على الدخول في الإسلام قسرا".[٢]

ويقول المستشرق الروسي بارتولد: "انتشر الدين الإسلامي في القرن الرابع للهجرة في قبائل الترك الرحل، وفي بعض مدن التركستان الصينية بواسطة التجارة وبدون استخدام أي سلاح، فكان الأتراك الذين استولوا على البلاد الإسلامية، في القرن الرابع الهجري مسلمين".[٣]

ويقول المستشرق إيفلين كوبولد: "إن الإسلام لا يعرض لمعتنقي الأديان الأخرى بسوء، وهو لا يحملهم على قبول دينه والنزول تحت شرعته، كما إنه لم يحارب الذين لم يعتنقوا دينه، ولا عمل على قتلهم وحرقهم وتعذيبهم كما فعل غيره ....".[٤]

المبحث الثالث: الاعتراف بما يفعلونه من الحق وما يقولونه

إن من الحق – كما قرر القرآن العظيم – أن نعدل مع الناس كلهم، حتى لو كان فيهم من نبغضه: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى).[٥]

ومن العدل مع غير المسلمين أن نعترف بما يفعلونه من الحق وما يقولونه، لا ولاء ومحبة لهم، وإنما من باب بيان الحق، وللعدل معهم، مع اعتقادنا الجازم أن أعمالهم الطيبة لا تنفعهم عند الله تعالى - إلا إذا دخلوا في الإسلام.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك:

١– موقف النجاشي ملك الحبشة لما هاجر إليه الصحابة – رضي الله عنهم -، فقد آواهم وأكرمهم، وكان النبي ﷺ قد أخبر أصحابه بذلك فقال: "إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم عنده، فالحقوه ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا".[٦]

تقول أم سلمة – رضي الله عنها -: "فخرجنا إليها حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار، إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلما".[١]

---

[١] "قالوا عن الإسلام" ص٣٦٦.

[٢] المرجع السابق ص٢٩٥.

[٣] المرجع السابق ص٣٠٧.

[٤] المرجع السابق.

[٥] المائدة (٨).

[٦] أخرجه البيهقي في "السنن الكبرى" (٩/٩)، وحسنه مؤلف "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية" ص١٩٧.

ويشهد لأعمال النجاشي الطيبة كذلك موقفه العادل، لما جاء اثنان من المشركين، يطلبان تسليم الصحابة إليهم، ولكن النجاشي كان فطنا، فقدر أى أن يطلب الصحابة ويستمع بنفسه إلى ما يقولونه.

وحضر الصحابة، وتكلم نيابة عنهم جعفر بن أبي طالب – رضي الله عنه –، ولما طلب النجاشي أن يقرأ عليه جعفر شيئا مما جاء به رسول الله ﷺ قرأ عليه صدر سورة مريم، فبكى النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكى أساقفته حتى ابتلت كتبهم التي يحملونها، وقال مخاطبا سفيري قريش: "إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبدا".[2]

٢– موقف عداس، وهو غلام نصراني لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة، فقد جاء في السيرة أن أهل الطائف لما خذلوا رسول الله ﷺ تحركت في عتبة وأخيه عاطفة الرحم، فأمرا غلامهما عداسا أن يقدم للنبي ﷺ عنبا، ذكر ابن حجر في "الإصابة" أن عتبة وشيبة قالا لعداس: "خذ هذا القطف من العنب، فضعه بين يدي ذلك الرجل، ففعل، فلما وضع يده فيه قال "باسم الله" فتعجب عداس، وقال له: هذا الكلام ما يقوله أحد من أهل هذه البلاد، فذكر له أنه رسول الله"، فعرف صفته فانكب عليه يقبله.[3]

وذكر سليمان التيمي في السيرة له كما في "الإصابة"[4] أنه قال للنبي ﷺ: "أشهد أنك عبد الله ورسوله".

٣– موقف بحيرى الراهب، وذلك عندما اعترف بالحق الذي يعلمه ولم يكتمه، فقد خرج أبو طالب إلى الشام، ومعه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش ورسول الله ﷺ يومئذ غلام، فلما أشرفوا على الراهب – يعني بحيرى – هبطوا، فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت إليهم، فنزل وهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم، حتى جاء فأخذ بيد النبي ﷺ، فقال: هذا سيد العالمين، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين.. وذكر لهم حين سألوه عن الشيء الذي علّمه قال: خاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه...[5].

---

[1] المرجع السابق، وانظر: "مسند أحمد" (٢٠٢/١)، و"حلية الأولياء" (١١٦/١).

[2] مسند أحمد (٢٠٢/١)، و"حلية الأولياء" (١١٦/١)، و"سير أعلام النبلاء" (٤٣١/١)، و"السيرة النبوية" لابن هشام (١٧٧/٢).

[3] "الإصابة" (٤٦٦/٢)، ط. دار صادر، وانظر: "الثقات" لابن حبان (٧٨/١)، و"السيرة النبوية" لابن هشام (٣٦٨/٢، ٣٦٩)، و"تاريخ الأمم والملوك" (٥٤٤/١)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١١/١٦)، و"فتح الباري" (٧٢٠/٨).

[4] المرجع السابق.

[5] أخرجه الترمذي في سننه (٥٩٠/٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي (١٩١/٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٢٧/٧)، وابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨٢/٤).

٤–موقف نسطورا الراهب، فقد جاء في السيرة أن النبي ﷺ عندما قدم بصرى من أرض الشام نزل في ظل شجرة، ومعه غلام لخديجة بنت خويلد أم المؤمنين –رضي الله عنها– وذلك حين خرج بتجارتها، فقال نسطورا الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم قال لميسرة: أفي عينيه حمرة؟ قال: نعم، قال: لا تفارقه، قال: هو نبي، وهو آخر الأنبياء.[١]

٥–موقف ورقة بن نوفل ابن عم أم المؤمنين خديجة –رضي الله عنها-، وذلك حينما ذهبت خديجة برسول الله ﷺ في أول نزول الوحي عليه إلى ورقة، "وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله –تعالى– أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت: اسمع من ابن أخيك، فقال: يا ابن أخي، ما ترى؟ فأخبره. فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ياليتني فيها جذعا[٢] أكون حيا حين يخرجك قومك، قال: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت أحد بما جئت به إلا عودي وأوذي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم يلبث ورقة أن توفي".[٣]

إن هذه المواقف المتعددة كانت لنصارى، تبين حرصهم الشديد على بيان الحق، والحذر من كتمه أو السكوت عنه، إنها لمن المشجع لغيرهم أن يسلكوا مسلكهم ببيان الحق واتباعه، ونبذ الباطل واجتنابه، والانضواء تحت راية الإسلام، الدين الخاتم الذي لا يقبل الله –تعالى– من أحد سواه، ولا ينفعه عمل صالح بدون سلوكه: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين).[٤]

اللهم كما أكرمتنا بالإسلام فارحمنا، وثبتنا عليه حتى نلقاك، يا أرحم الراحمين.

المبحث الرابع: جواز الدخول في حماية النصارى عند الحاجة، إذا أُمنت الفتنة

سبق أن قدمت في المبحث السابق حديث النبي ﷺ في حثه لأصحابه على الخروج إلى النجاشي ملك الحبشة النصراني: "إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله تعالى لكم فرجا ومخرجا"، وتقدم قول أم سلمة –رضي الله عنها– في الحديث نفسه: "فخرجنا إليها حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار، إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلما".

---

[١] "صفوة الصفوة" لابن الجوزي (٧٢/١).

[٢] النصب على أنه خبر كان المحذوفة، وقيل: حال، وقيل: التقدير: ياليتني جعلت فيها جذعا، "فتح الباري" (٣٦/١).

[٣] أخرجه البخاري (١٨٩٤/٤)، ومسلم (١٤١/١).

[٤] آل عمران (٨٥).

فهذا دليل واضح من السنة النبوية على جواز دخول المسلم في حماية النصراني إذا عرف منه محبة العدل، ونبذ الظلم، وأمن المسلم على دينه من أن يفتن فيه، أو يصد عنه، وكانت الحاجة إلى ذلك ماسة جدا.

وفي موقف النجاشي النصراني الذي أسلم ما يشهد لمناصرته الحق مما لن ينساه التاريخ، وذلك لما جاء اثنان من المشركين، يطلبان تسليم الصحابة إليهم، ولكن النجاشي كان فطنا، فقد رأى أن يطلب الصحابة ويستمع بنفسه إلى ما يقولونه.

ومن مشاهد المناصرة ومواقفها:

١- موقف عداس غلام عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة.

٢- موقف بحيرى ونسطورا الراهبين.

٣- موقف ورقة بن نوفل.

وهذه المشاهد تقدمت الإشارة إليها بالتفصيل في المبحث السابق، وليس ثمة داع إلى إعادتها، والله أعلم.

الخاتمة

يمكن بيان أهم النتائج لهذا البحث فيما يأتي:

١- وجوب الاهتمام بجانب الدعوة لأهل الكتاب بالحكمة والموعظة الحسنة، لما شوهد -ولله الحمد- من أثره الكبير في دخول الأفواج التي لا تحصى ولا تعد في هذا الدين.

٢- أن لعناية بجانب الإقناع له أثره الكبير في تنازل أهل الكتاب عن أفكارهم ومعتقداتهم، ثم دخولهم في الإسلام.

٣- أن التعامل مع أهل الكتاب مبني على العدل والحق، لا على الجور والظلم.

٤- أن التعامل مع أهل الكتاب بالعدل والحق لا يعني مودتهم ومحبتهم.

٥- أن الحذر من موالاة أهل الكتاب ومحبتهم جزء أساسي في عقيدة المسلمين، لا يجوز التنازل عنه بأي حال من الأحوال.

٦- أن الحذر من موالاة أهل الكتاب لا يعني ظلمهم أو الاعتداء عليهم.

٧- أنه إذا استخدم أهل الكتاب أو أحدهما القوة ضد المسلمين وجب عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم وأعراضهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وإذا صارت لهم قوة وهيمنة على العالم فإنهم يخرجون لدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام....، حسب التفصيل الذي بيناه داخل هذا البحث.

***

الفقه الإسلامي

التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي

(٣)

عبد الله بن عارف جاويد
المدينة المنورة

المبحث الثاني: القائلون بمنع تبرع الزوجة بمالها كله وبأكثر من ثلث مالها وأدلتهم:

المطلب الأول: القائلون بمنع الزوجة من التبرع بمالها كله وأدلتهم:

قال بمنع المرأة من التبرع بمالها مطلقا كل من: أنس بن مالك ومجاهد وطاووس وسفيان ابن عيينة والليث بن سعد[١].

أدلتهم:

١- قوله تعالى: "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم"[٢].

حكم الحديث: إسناده حسن وقال الألباني: حسن صحيح.

٢- عن عمرو بن شعيب أن أباه أخبره عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال "لا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها"[٣].

٣- عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال "لا يجوز لامرأة أمر في مالها إذا ملك زوجها عصمتها"[٤].

حكم الحديث: إسناده حسن وقال الألباني: حسن صحيح.

٤- حدثنا حرملة بن يحيى، حدثنا عبد الله بن وهب، أخبرني الليث بن سعد، عن عبد الله بن يحيى، رجل من ولد كعب بن مالك، عن أبيه، عن جده، أن جدته خيرة، امرأة كعب بن مالك، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلي لها، فقالت: إني تصدقت بهذا، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يجوز للمرأة في مالها إلا بإذن زوجها، فهل استأذنت كعبا؟ قالت: نعم، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كعب بن مالك، فقال: هل أذنت لخيرة أن تتصدق بحليها؟ فقال: نعم، فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها"[٥].

---

[١] فتح الباري ٥/٢١٨ والمحلى ٨/٣١٠-٣١١

[٢] النساء: ٣٤

[٣] أخرجه أبو داود في سننه في كتاب البيوع (١٧)، باب في عطية المرأة بغير إذن زوجها (٨٦) برقم: ٣٥٤٧ ص: ٦٣٦

[٤] أخرجه أبو داود في سننه في كتاب البيوع (١٧)، باب في عطية المرأة بغير إذن زوجها (٨٦) برقم: ٣٥٤٦ ص: ٦٣٦

[٥] أخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب الهبات (١٤) في باب عطية المرأة بغير إذن زوجها (٧) برقم: ٢٣٨٨ ص: ٤٠٧

حكم الحديث: صححه الألباني، وضعفه البوصيري في مصباح الزجاجة حيث قال: "هذا إسناد ضعيف، عبد الله بن يحيى لا يعرف في أولاد كعب بن مالك "[١].

٥- عن أبي هريرة قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه و سلم أي النساء خير، قال: "التي تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ومالها بما يكره "[٢].

حكم الحديث: قال الألباني: "حسن صحيح".

مناقشة الأدلة:

قال ابن حزم في معرض رده على من استدل بالآية: "إن الله تعالى لم يخص بهذا الكلام زوجا من أب، ولا من أخ. ثم لو كان فيها نص على الأزواج دون غيرهم لما كان فيها نص، ولا دليل على أن له منعها من مالها، ولا من شيء منه، وإنما كان يكون فيه أن يقوموا بالنظر في أموالهن، وهم لا يجعلون هذا للزوج أصل بل لها عندهم أن توكل في النظر في مالها من شاءت على رغم أنف زوجها.

ولا خلاف في أنها لا ينفذ عليها بيع زوجها لشيء من مالها لا ما قل، ولا ما كثر لا لنظر، ولا لغيره، ولا ابتياعه لها أصلا فصارت الآية مخالفة لهم فيما يتأولونه فيها. وصح أن المراد بقوله تعالى الرجال قوامون على النساء ما لا خلاف فيه من وجوب نفقتهن وكسوتهن عليهم، فذات الزوج على الزوج، وغير ذات الزوج إن احتاجت على أهلها فقط، وبالله تعالى التوفيق فصارت الآية حجة عليهم، وكاسرة لقولهم "[٣].

وأجاب الجمهور عن حديث عمرو بن شعيب بعدة أجوبة منها:

١- أن الحديث ضعيف ولكن هذا ليس بصحيح لأنه قد تقدم أن الحديث إسناده حسن.

٢- قال البيهقي في الكبرى: "الطريق من هذا الحديث إلى عمرو بن شعيب صحيح، ومن أثبت أحاديث عمرو بن شعيب إلا أن الأحاديث التي مضت في الباب قبله أصح إسنادا"[٤]، فسلك البيهقي رحمه الله في هذا الوجه مسلك الترجيح.

٣- جمع بعض العلماء بين الأحاديث بأن النهي عن إنفاقها إلا بإذنه نهي للتنزيه، فلا ينبغي أن تتصرف في مالها إلا بإذن زوجها أدبا واستحبابا، وأشار إلى هذا الوجه الشافعي والخطابي[٥].

---

[١] مصباح الزجاجة ٣/٥٩

[٢] أخرجه النسائي في المجتبى (السنن) في كتاب النكاح (٢٦)، باب أي النساء خير (١٤) برقم: ٣٢٣١ ص: ٥٠٠

[٣] المحلى ٨/٣١٦

[٤] السنن الكبرى للبيهقي ٦/١٠١

[٥] السنن الكبرى للبيهقي ٦/١٠١ ومعالم السنن ٣/١٧٤

قال الشيخ محمد شمس الحق عظيم آبادي في شرحه للحديث: "أي في مال في يدها لزوجها، أضيف إليها مجازا لكونه في تصرفها فيكون النهي للتحريم، أو المراد مال نفسها، لكونهن ناقصات العقل فلا ينبغي لها أن تتصرف في مالها إلا بمشورة زوجها أدبا واستحبابا، فالنهي للتنزيه، كذا قاله بعض العلماء"[١].

وأما حديث حرملة ابن يحيى فضعيف كما تقدم.

وأما حديث أبي هريرة، فقال ابن حزم في تعليقه على هذا الحديث بعد أن رجح رواية الحديث بصيغة "ماله": "ثم لو صح ومالها دون معارض لما كان لهم في تلك الرواية متعلق; لأن هذا اللفظ إنما فيه الندب فقط لا الإيجاب، وإنما الطاعة في الطاعة، والمنع من الصدقة وفعل الخير ليس طاعة، بل هو صد عن سبيل الله تعالى فبطل تعلقهم بهذا الخبر"[٢].

المطلب الثاني: القائلون بمنع الزوجة من التبرع بأكثر من ثلث مالها وأدلتهم

قال بمنع الزوجة من التبرع بأكثر من ثلث مالها معظم المالكية.

قال الإمام مالك رحمه الله: "ما تصدقت به المرأة ذات الزوج، أو أعتقت أو وهبت مما هو أكثر من الثلث، فلا يجوز منه ثلث ولا غيره"[٣].

كما منع الإمام احمد بن حنبل – في الرواية الضعيفة عنه – الزوجة من التصرف في مالها بغير عوض فيما زاد عن الثلث إلا بإذن زوجها[٤].

قال عبد الوهاب الثعلبي: "فأما الزوجات فكل امرأة ذات زوج فليس لها أن تتصرف في مالها فيما زاد على ثلثه بهبة أو صدقة أو عتق وكل ما ليس بمعاوضة إلا بإذن الزوج، فإن فعلت فالأمر للزوج، إن أجازه جاز، وإن رده فسخ جميعه، وقيل ما زاد على الثلث، ثم ليس لها التصرف في بقية المال الذي أخرجت ثلثه، ولها ذلك في مال آخر إن طرأ لها"[٥].

قال الشيخ الدردير بأنه يحق لها التبرع بثلث آخر بعد مضي مدة معينة: "وليس لها بعد الثلث تبرع إلا أن يبعد ما بين التبرعين بعام على قول أو نصفه على آخر فلها التبرع من الثلثين الباقيين وكأنه للبعد صار مالا برأسه لم يقع فيه تبرع"[٦].

واستدل المالكية على منع الزوجة من التبرع بالزائد عن الثلث بما استدل به القائلون بمنع الزوجة من التبرع بمالها، إلا أنهم حملوا أدلة المنع على ما زاد على الثلث، وأباحوه في الثلث

---

[١] عون المعبود ٩/٤٦٢

[٢] المحلى ٨/٣١٦-٣١٧

[٣] المدونة الكبرى ٤/١٢٤

[٤] المغني ٦/٦٠٢

[٥] الكافي في فقه أهل المدينة ص٤٢٤

[٦] الشرح الكبير ٣/٣٠٩

فما دونه لأنه قليل في نظرهم، وقاسوه على المريض. واستدلوا على مذهبهم أيضا بكون الرجل يتزوج المرأة لمالها، وأنها تضره إذا تبرعت بأكثر من الثلث، وكذا بحقه التجمل بمالها.

وفيما يلي مناقشة هذه الأدلة والتعليلات:

١- إن الرجل يتزوج المرأة لمالها، قال القاضي عبد الوهاب في هذا المعنى: "إن مهر المثل يقل ويكثر بحسب مالها وكثرته كما يقل ويكثر بحسب بروزها في الجمال وإذا ثبت ذلك فليس لها إبطال غرض الزوج مما لأجله رغب في نكاحها وكمل لأجل صداقها"[١].

قال ابن حزم في هذا الإطار: "موه المالكيون بأن قالوا: صح، عن النبي صلى الله عليه وسلم: تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها[٢] قالوا: فإذا نكحها لمالها فله في مالها متعلق "[٣].

ثم رد عليهم بقوله: " فأما الخبر "تنكح المرأة لأَربع " فليس فيه التغبيط بذلك، ولا الحض عليه، ولا إباحته، فضلا عن غير ذلك، بل فيه الزجر، عن أن تنكح لغير الدين لقوله عليه السلام في هذا الخبر نفسه فاظفر بذات الدين فقصر أمره على ذات الدين، فصار من نكح للمال غير محمود في نيته تلك. ثم هبك أنه مباح مستحب أي دليل فيه على أنها ممنوعة من مالها بكونه أحد الطماعين في مال لا يحل له منه شيء إلا ما يحل من مال جاره وهو ما طابت له به نفسها ونفس جاره، ولا مزيد "[٤].

٢- إذا تصدقت المرأة بأكثر من الثلث فإنها بذلك تضر زوجها، كما في المدونة: "قلت: ولم قال مالك: إذا تصدقت المرأة بثلثها فأدنى جاز ذلك، إذا كانت ذات زوج. فإن زادت على ثلثها أبطل جميع ذلك؟ قال: لأنه إذا كان الثلث فأدنى، لم يكن ذلك عنده ضررا، وإن كان أكثر من الثلث رآه ضررا، أبطل جميعه ولم يجز منه شيء"[٥].

قال الشافعي ردا على هذا القول: "إذا جاز للمرأة أن تعطي من مالها الثلث لا تزيد عليه فلم يجعلها مولى عليها ولم يجعل زوجها شريكا ولا مالها مرهونا في يديه ولا هي ممنوعة من مالها ولا مخلى بينها وبينه ثم يجيز لها بعد زمان إخراج الثلث والثلث بعد زمان حتى ينفد مالها فما منعها مالها ولا خلاها وإياه"[٦].

٣- حق الزوج في التجمل من مالها، قال الدردير: "حجر على الزوجة الحرة الرشيدة بدليل ما قدمه من حجر السيد على رقيقه والولي على السفيه لزوجها البالغ الرشيد أو ولي السفيه

---

[١] المعونة على مذهب عالم المدينة ٢/١٦٤

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب النكاح (٦٨)، باب الأكفاء في الدين (١٥) برقم: ٥٠٩٠ص: ١٠٧١

[٣] المحلى ٨/٣١٣

[٤] المحلى ٨/٣١٥

[٥] المدونة الكبرى ٤/١٢٤

[٦] الأم ٤/٤٥٦

ولو كان الزوج عبدا لأن الغرض من مالها التجمل به والزوج ولو عبدا له حق في التجمل من مالها"[١]. وقال القاضي عبد الوهاب معللا ذلك: "لأن العادة جارية بأن الزوج يتحمل بمال زوجته، و له فيه معونة وتبقية"[٢].

يمكن الرد على هذا القول بأنه ليس للزوج حق تجمل بمال زوجته إلا إذا طابت نفسها بذلك لقوله تعالى: "وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا"[٣]. حيث يقاس الانتفاع والتجمل على الأكل. وإذا كان لا يجوز لها التجمل بمالها إلا بإذنها، فلا يحق له الحجر في مالها باسم التجمل

٤- قياس الزوجة على المريض والموصي في حصر تبرعها في الثلث.

انتقد هذا القياس كثير من الفقهاء، منهم ابن قدامة في قوله:

"وليس معهم حديث يدل على تحديد المنع بالثلث فالتحديد بذلك تحكم ليس فيه توقيف ولا عليه دليل وقياسهم على المريض غير صحيح لوجوه:

أحدها: أن المرض سبب يفضي إلى وصول المال إليهم بالميراث والزوجية إنما تجعله من أهل الميراث فهي أحد وصفي العلة فلا يثبت الحكم بمجردها كما لا يثبت للمرأة الحجر على زوجها ولا لسائر الوارث بدون المرض.

الثاني: أن تبرع المريض موقوف فإن برئ من مرضه صح تبرعه وها هنا أبطلوه على كل حال والفرع لا يزيد على أصله.

الثالث: أن ما ذكروه منتقض بالمرأة فإنها تنتفع بمال زوجها وتتبسط فيه عادة ولها النفقة منه وانتفاعها بماله أكثر من انتفاعه بمالها وليس لها الحجر عليه وعلى أن هذا المعنى ليس بموجود في الأصل ومن شرط صحة القياس وجود المعنى المثبت للحكم في الأصل والفرع جميعا"[٤].

وقال البهوتي: "قياسها على المريض فاسد لأن المرض سبب يفضي إلى وصول المال إليهم بالميراث، والزوجية إنما تجعله من أهل الميراث فهي أحد وصفي العلة فلا يثبت الحكم بمجردها، كما لا يثبت لها الحجر على زوجها"[٥].

---

[١] الشرح الكبير ٣/٣٠٧-٣٠٨

[٢] المعونة على مذهب عالم المدينة ٢/١٦٤

[٣] النساء: ٤

[٤] المغني ٦/٦٠٤

[٥] كشاف القناع ٣/١٥٧

الترجيح:

وبالتأمل في الأدلة المتعددة التي استدل بها كل فريق لدعم رأيه، يتبين أن أدلة القائلين بجواز تبرع الزوجة بمالها من غير إذن الزوج هي الأقوى، وهو الصواب الذي يشهد له صريح النصوص من القرآن والسنة، والله أعلم.

لكن من باب حسن العشرة بين الزوجين، وحفاظا على التفاهم والمودة بينهما، عليهم أن يستشيرا بعضهما البعض فيما يتعلق بتصرفاتهما المالية إذا كان الأمر يتعلق بمبالغ مالية مهمة.

المبحث الثالث: جواز هبة الزوجة لزوجها وحكم اعتصارها

المطلب الأول: جواز هبة الزوجة لزوجها

لا خلاف بين الفقهاء في جواز هبة الزوجة لزوجها لما يحقق ذلك من منافع للأسرة. ومعرفة مدى تطوع الزوجة –عن طيب نفس– في إثناء الهبة لزوجها أو عدمه هو الضابط الذي يحكم مدى حقها في اعتصار ما وهبته إياه أو لا، والآية الكريمة التي أجازت هبة الزوجة لزوجها ربطت ذلك التصرف بطيب النفس في قوله تعالى: "فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا"[١].

وذهب المفسرون إلى أن هذه الآية تفيد حلية ما وهبت الزوجة لزوجها إذا كان عن طيب نفس منها.

قال النسفي: " { فَإِن طِبْنَ لَكُمْ } للأزواج { عَن شَيء مّنْهُ } أي من الصداق إذ هو في معنى الصدقات { نَفْساً } تمييز وتوحيدها لأن الغرض بيان الجنس والواحد يدل عليه، والمعنى فإن وهبن لكم شيئاً من الصدقات وتجافت عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى الهبة من شكاسة أخلاقهم وسوء معاشرتكم. وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس فقيل «فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً» ولم يقل «فإن وهبن لكم» إعلاماً بأن المراعي هو تجافي نفسها عن الموهوب طيبة"[٢].

وقال ابن الجوزي: "فالمعنى: فان طابت أنفسهن لكم بذلك، فكلوه هنيئا مريئا. وفي الهنيء ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه ما تؤمن عاقبته. والثاني: ما أعقب نفعا وشفاءً. والثالث: أنه الذي لا ينغِّصه شيء. وأما "المريء" فيقال: مريء الطعام: إذا انهضم، وحمدت عاقبته"[٣].

---

[١] النساء: ٤

[٢] تفسير النسفي ١/٢٠٤

[٣] زاد المسير في علم التفسير ٢/١٢

وقال الجصاص: "لما أمرهم بإيتائهن صدقاتهن عقبه بذكر جواز قبول إبرائها وهبتها له لئلا يظن أن عليه إيتاءها مهرها وإن طابت نفسها بتركه قال قتادة في هذه الآية ما طابت به نفسها من غير كره فهو حلال.... وقوله تعالى فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً شامل لجميع الصدقات المأمور بإيتائها فدل أنه لا اعتبار بلفظ الأكل في ذلك وإن المقصد فيه جواز استباحته بطيبة من نفسها"[١].

وقال ابن كثير: "إن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتما، وأن يكون طيب النفس بذلك، كما يمنح المنيحة ويعطي النحلة طيبا بها، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيبا بذلك، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالا طيبا؛ ولهذا قال تعالى: فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا"[٢].

ومع أن الآية واردة في خصوص الصداق، فإنها تشمل كل ما تهبه الزوجة للزوج عن طيب نفس. وانطلاقا من هذه الآية وغيرها من الآيات التي تتحدث عن جواز الصدقة, أجاز جمهور الفقهاء هبة الزوجة إذا بلغت رشيدة، إلا أن المالكية اشترطوا لجواز الهبة الدخول.

وأشار الجصاص إلى هذا الاختلاف في قوله: "وقد اختلف الفقهاء في هبة المرأة مهرها لزوجها فقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد وزفر والحسن بن زياد والشافعي: إذا بلغت المرأة واجتمع لها عقلها جاز لها التصرف في مالها بالهبة أو غيرها بكرا كانت أو ثيبا وقال مالك لا يجوز أمر البكر في مالها ولا ما وضعت عن زوجها من الصداق وإنما ذلك إلى أبيها في العفو عن زوجها ولا يجوز لغير الأب من أوليائها ذلك...

وقال الأوزاعي: لا تجوز عطية المرأة حتى تلد وتكون في بيت زوجها سنة.

وقال الليث: لا يجوز عتق المرأة ذات الزوج ولا صدقتها إلا في الشيء اليسير الذي لا بد لها منه لصلة رحم أو غيره ذلك مما يتقرب به إلى الله تعالى"[٣].

ثم قال: "الآية قاضية بفساد هذه الأقوال شاهدة بصحة قول أصحابنا الذي قدمنا لقوله عز وجل: فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً، ولم يفرق فيه بين البكر والثيب ولا بين من أقامت في بيت زوجها سنة أو لم تقم، وغير جائز الفرق بين البكر والثيب في ذلك"[٤].

لكن الهبة لا تجوز إذا كانت تحت الضغط و التهديد، قال محمد ابن رشد: "لا اختلاف في أن ما وهبت المرأة لزوجها من مالها أو من صداقها عليه في مرضه، أو في صحته، لازم لها، وجائز عليها، ليس لها أن ترجع في شيء منه في حياته، ولا بعد وفاته، إلا أن يكون أكرهها على ذلك

---

[١] أحكام القرآن للجصاص ٣٥١/٢
[٢] تفسير ابن كثير ٣٤٩/٣
[٣] أحكام القرآن للجصاص ٣٥٢/٢
[٤] أحكام القرآن للجصاص ٣٥٣/٢

بالإحاقة والتهديد، أن يسألها ذلك، فتأبى فيقول: وبالله لئن لم تفعلي ذلك لأضيقن عليك، ولا أدعك تأتي أهلك، ولا أدع أهلك يأتونك...

وما أشبه ذلك، فلا يلزمها، لأن إكراه الرجل امرأته إكراه على ما قاله في المدونة"[١].

المطلب الثاني: حكم اعتصار الهبة.

إذا أرادت المرأة الرجوع في هبتها لزوجها، فإن العلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال.

القول الأول: ليس لها الرجوع في الهبة، وهو مذهب المالكية، وقول أبي حنيفة وابن حزم.

قال الدردير: "صح هبة أحد الزوجين للآخر"[٢].

وقال: "هبة أحد الزوجين للآخر شيئا من عرض أو غيره فلا يصدق الواهب منهما لصاحبه في أنه وهب للثواب إلا لشرط أو قرينة في غير المسكوك"[٣].

نقل الشافعي عن أبي حنيفة هذا القول حيث قال: " وإذا وهبت المرأة لزوجها هبة أو تصدقت أو تركت له من مهرها ثم قالت أكرهني وجاءت على ذلك ببينة فإن أبا حنيفة كان يقول لا أقبل بينتها وأمضى عليها ما فعلت من ذلك"[٤].

قال ابن حزم: " ومن وهب هبة صحيحة لم يجز له الرجوع فيها أصلا مذ يلفظ بها إلا الوالد والأم فيما أعطيا، أو أحدهما لولدهما فلهما الرجوع فيه أبدا"[٥].

ونقل الإمام البخاري هذا القول عن عمر بن عبد العزيز[٦].

دليلهم:

قول النبي صلى الله عليه وسلم: " العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه"[٧].

قال ابن حجر في شرح الحديث: "إنه ذم العائد في هبته على الإطلاق فدخل فيه الزوج والزوجة تمسكا بعمومه"[٨].

القول الثاني: إذا اكرهها الزوج على الصدقة فلها الرجوع فيها وإذا لم يكرهها فلا رجوع لها. وهو قول بعض الحنفية وقول الشافعي، قال: "وإذا تصدقت المرأة على زوجها بشيء أو وضعت له من مهرها أو من دين كان لها عليه فأقامت البينة أنه أكرهها على ذلك والزوج في موضع القهر للمرأة أبطلت ذلك عنها كله"[٩]. ونقل الشافعي هذا القول عن ابن أبي ليلى.

---

[١] البيان والتحصيل ١٣/٤٦٤-٤٦٥

[٢] الشرح الكبير ٤/١٠٦

[٣] الشرح الكبير ٤/١١٥

[٤] الأم ٨/٢٥٩

[٥] المحلى ٩/١٢٧

[٦] صحيح البخاري ص:٥١٨

[٧] أخرجه البخاري في الصحيح في كتاب الهبة (٥١) وفضلها، باب هبة الرجل لامرأته والمرأة لزوجها (١٤) برقم: ٢٥٨٩ ص: ٥١٨

[٨] فتح الباري ٥/٢١٧

[٩] الأم ٨/٢٥٩

ونقل البخاري هذا القول عن الزهري في قوله: "قال الزهري فيمن قال لامرأته: هبي لي بعض صداقك، أو كله، ثم لم يمكث إلا يسيرا حتى طلقها فرجعت فيه قال يرد إليها إن كان خلبها وإن كانت أعطته عن طيب نفس ليس في شيء من أمره خديعة جاز"[١].

وهو قول بعض المالكية نقله العلمي في كتاب النوازل[٢].

قال السرخسي:"عن علي رضي الله عنه قال: "إذا وهبت المرأة لزوجها هبة فإن شاءت رجعت فيها إذا هي ادعت أنه استكرهها، وإن وهب هو لها شيئا فليس له أن يرجع في الهبة" وليس مراده الفرق بينهما في الرجوع بحكم الزوجية، وإنما مراده أن الدعوى من المرأة أنها كانت مكرهة مسموع، ومن الزوج لا، لاعتبار الظاهر، فالظاهر أن الزوج يتمكن من إكراه زوجته، والمرأة لا تتمكن من إكراه زوجها، والظاهر أن المرأة تخاف على نفسها من جهة الزوج بما يثبت به الإكراه من الضرب والحبس، والزوج لا يخاف ذلك من جهة امرأته، وفيه دليل أن الهبة من المكره لا تصح لأن شرط صحة الهبة تمام الرضا والإكراه بعدم الرضا"[٣].

القول الثالث: لها الرجوع مطلقا. ونقل هذا القول عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وشريح والشعبي.

قال ابن حزم: "كتب عمر بن الخطاب: أن النساء يعطين أزواجهن رغبة ورهبة، فيما امرأة أعطت زوجها شيئا فأرادت أن تعتصره فهي أحق به، وصح القضاء بها عن شريح، والشعبي، ومنصور بن المعتمر، حتى أن شريحا قضى لها بالرجوع فيما وهبت. له بعد موته"[٤].

ونقل عن الزهري: "ما أدركت القضاة إلا يقيلون المرأة فيما وهبت لزوجها، ولا يقيلون الزوج فيما وهب لأمرأته"[٥].

وهذه الفتوى لعمر بن الخطاب رضي الله عنه تفيد بأنه كان يريد إثبات سلطة الزوجة على مالها.

الترجيح:

الذي أراه راجحا هو القول الثاني، والله أعلم بالصواب.

(يتبع)

***

[١] صحيح البخاري ص:٥١٨
[٢] كتاب النوازل للعلمي ٣٥٢/٢
[٣] المبسوط ٥٢/١٢
[٤] المحلى ١٣٣/٩
[٥] فتح الباري ٢١٧/٥

الأدب العربي

المتنبي
مالئ الدّنيا وشاغل النّاس

وسيم المحمدي / المدينة المنورة

التّمهيد [1]

إن شاعرا ما من شعراء العربية لم يُحدث دويّا في أسماع الأدباء ومحبي الشعر كما فعل المتنبي، بحيث ظل الناس منذ أن طلع علينا هذا الرّجل بشاعريته الفذّة ويدرسونه وينقدونه ويعلقون عليه.

وإن ديوانا من دواوين شعراء العربية أيضا لم يلق من عناية الشرح والتعليق والنقد والاستحسان مثل ما لقي ديوان المتنبي، وغنيّ عن البيان أن أبا الطيب يتصدر شعراء العربية جميعا شهرة وبُعد صيت، والسبب في ذلك هو ما حواه ديوانه من عجائب وغرائب، وأعماق وآفاق، وتحدّيات مخالفة ما أَلِف الناس أن يسمعوه من غيره من الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه.

لقد كان المتنبي محطما لتقاليد الشعر، كاسرا لأطواقه، خارجا على المألوف منها، الأمر الذي جعل المهتمين بالشعر يأخذون منه مواقف متطرفة في نطاق التأييد والإعجاب حينا، أو في مجال المخالفة والانتقاد حينا آخر.

إن عددا غير قليل من علماء اللغة والأدب قد عرض لديوان المتنبي بالشرح، ونستطيع أن نعدّ من هؤلاء الشراح على سبيل التمثيل أبا الفتح ابن جنّي، وهو أوّل من شرح الديوان في حياة صاحبه، وأبا العلاء المعري في شرحيه: معجز أحمد، واللامع العزيزي، ومن مشهوري الشارحين أيضا أبو الحسن الواحدي، وأبو زكريا التبريزي، والأعلم الشنتمري، وأبو البقاء العكبري، وأبو اليمن يزيد بن الحسين الكندي، وأبو الحسن محمد بن عبد الله الدلقي، وابن الأشج زكريا بن بكر الغساني الأندلسي.

هذا، وإن عددا من العلماء المحدثين أيضا قد عمدوا إلى شرح الديوان، في مقدمتهم الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني، وعبد الرحمن البرقوقي المصري، والدكتور عبد الوهاب عزام.

وأما من عرض للمتنبي وشعره بالدراسة والنقد، فإننا نستطيع أن نذكر من القدامى الحسن بن محمد بن وكيع التنيسي المصري الشاعر الناقد، وسمّى كتابه "المنصف"، وأبا منصور الثعالبي

---

[1] أغلب هذا التمهيد مأخوذ من مقدّمة كتاب (أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ص ٥_٧).

في جزء كبير من كتابه "اليتيمة"، والقاضي علي ابن عبد العزيز الجرجاني في كتابه "الوساطة بين المتنبّي وخصومه"، وعبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة"، وكتاب "الفتح على أبي الفتح" لابن فورجه، وكتاب أبي الحسن علي بن عيسى الرّبعي المسمى بـ"كتاب التنبيه"، وكتاب الحسين بن محمد بن طاهر الشاعر، وكتاب محمد بن جعفر القزاز القيرواني، وكتاب الصاحب بن عباد المسمى "الكشف عن مساوئ المتنبي"، وكتاب "قصائد الصبا" للأعلم الشنتمري، وكتاب "نزهة الأديب في سرقات المتنبي من حبيب" لابن حسّون المصري، وكتاب "الانتصار" لأبي الحسن أحمد بن أحمد المغربي، وكتاب "التنبيه على رذائل المتنبي" للمؤلف نفسه، وكتاب "الرسالة الحاتمية" لأبي الحسن محمد بن المظفر الحاتمي، وكتاب "جبهة الأدب" للمؤلف نفسه، وكتاب "الإبانة عن سرقات المتنبي" لأبي سعيد محمد بن أحمد العميدي، وكتاب "الصبح المنبئ عن حيثية المتنبي" ليوسف البديعي.

ومن أشهر المعاصرين الذين كتبوا عن المتنبي وخصوا شخصه وشعره بدراسة مستقلة الأستاذ الدكتور طه حسين، وأستاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام، والأستاذ المحقق محمود محمد شاكر، والأستاذ محمد حلمي، والأستاذ الدكتور محمد محمد حسين، والأستاذ الدكتور عبد الله الطيب.

ولم يهمل المستشرقون المتنبي، فتوفر عدد غير قليل منهم على دراسته، غير أن أفضل كتبهم في هذا الشأن هو كتاب الأستاذ بلاشير "شاعر عظيم في القرن العاشر: أبو الطيب المتنبي".

هذا، وإن عددا كبيرا من الدارسين في المراحل العليا في جامعات العالم العربي قد خصوا المتنبي بالكثير من أبحاثهم في مرحلتي الماجستير والدكتوراه.

فالمتنبي ــ والأمر كذلك ــ يشكل سلسلة متصلة الحلقات عند الباحثين في حقل الشعر العربي جيلا بعد جيل منذ أن طلع بشعره على الناس، كل يجد فيه مايعجبه ويطربه، أو مايُسخطه ويُزعجه.

فصار الأمر كما قال ابن رشيق في العمدة وهو يتكلم عن كبار الشعراء: "ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس"[١].

وكما قال المتنبي نفسه عن شعره[٢]:

وما الدّهر إلا مِن رواة قصائدي ... إذا قلت شعرا أصبح الدهر مُنشدا

---

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده ٣٠/١.

(٢) ديوان المتنبي ص٣٦١.

فسار به من لا يسير مشمّرا وغنّى به من لا يغنّي مغرِّدا
فدع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الصائحُ المحكيّ والآخر الصدى

وكما قال[١]:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صممُ
أنامُ مِلْءَ جفوني عن شوارِدِها ويسهرُ الخلقُ جرّاها ويختصِمُ

ولكن ما الذي جعل شعره هكذا يروج رواجا ويقبل قبولا، وينشد في المجالس، ويغنّى به في المحافل؟!

قال ابن الأثير: "وكنت سافرت إلى مصر سنة ست وتسعين وخمسمائة (٥٩٦هـ)، ورأيت الناس مكبين على شعر أبي الطيب المتنبي دون غيره، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك، وقلت: إن كان لأن أبا الطيب دخل مصر فقد دخلها قبله من هو مقدّم عليه، وهو أبو النواس الحسن بن هانئ، فلم يذكروا لي في هذا شيئا، ثم إني فاوضت عبد الرحيم بن علي البيساني (القاضي الفاضل) رحمه الله في هذا، فقال لي: "إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس"، ولقد صدق فيما قال"[٢].

والأمر العجيب في شأن المتنبي ـ كما يقول الدكتور مصطفى الشكعة ـ أن المرء كلما قرأ شعره بعناية واستيناء خرج منه بشيء جديد لم يكن قد التفت إليه من قبل، وتلك سمة لا تتوفر إلا عند عدد قليل من الشعراء العرب، أولئك الذين تسنّموا ذروة الشعر، واستووا على قمته على مرّ العصور"[٣].

وكما يقول مصطفى صادق الرافعي: "إن هذا المتنبي لا يفرغ ولا ينتهي، فإن الإعجاب بشعره لا ينتهي ولا يفرغ، وقد كان نفسا عظيمة خلقها الله كما أراد، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ما أرادت، فكأنما جعلها بذلك زمنا يمتد في زمن."[٤].

والحقيقة أن لشعر المتنبي طابعا خاصا، له طعمه ونكهته، وتظهر فيه بجلاء شخصيته القوية التي تطلّ علينا من وراء شعره.

وسأتناول فيما يأتي - إن شاء الله تعالى - حياته وشعره بجوانب مختلفة.

---

(١) ديوان المتنبي ص٣٢٣.
(٢) الوشي المرقوم ص٥٧.
(٣) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ص٧.
(٤) وحي القلم ٣/٣٠٥.

نبذة من حياته

لَمحة عن عصره[١]:

ازدهرت الإمبراطورية العباسية ازدهارا شديدا في امتداد أطرافها، وسعة رقعتها، وخصب أرضها وسمائها، وعظمة سلطانها، وقد بلغت أوجَهَا في عهد المأمون، وما إن دارت الأيام دورتها حتى تمزّق هيكل تلك الإمبراطورية الضخمة لأسباب اجتماعية وسياسية، وأصبحت نهبا لكل ذي طموح وطمع، وإذا الدولة تصبح دويلات، أشهرها: دولة بني عباس في بغداد، ودولة البويهيين في فارس، ودولة الحمدانيين في الشام، ودولة الفاطميين في مصر والمغرب، وقد تنافست تلك الدويلات في تشجيع العلم والأدب، وأصبحت البلاطات المختلفة مباءة الشعراء والكتّاب، وقد اشتهر في هذه الحقبة أبو الطيب المتنبي، وأبو فراس الحمداني، والشريف الرضي، وأبو العلاء المعري، وابن الفارض، والبهاء زهير.

نسبه:

اختلف الأدباء والمترجمون في نسب المتنبي؛ ولعل السبب ذلك أنه كان يكتم نسبه، فسئل عن ذلك، فقال: إني أنزل دائما على قبائل العرب، وأحب ألا يعرفوني؛ خيفة أن يكون لهم في قومي تِرَة[٢].

فقيل: أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجُعْفي الكوفي[٣].

وقيل: أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكِنْدي[٤].

وقيل: أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار[٥].

والمشهور منه: أحمد بن الحسين أبو الطيب المتنبي.

وعُرِف أبوه بعيدان السَّقَّاء، الذي كان يستقي في الكوفة على جمله لأهل محله فيها، اسمها كندة.

والجعفي: نسبة إلى أبيه الذي ذُكر أنه من جُعفي.

والكوفي: نسبة إلى الكوفة؛ مكان ولادته.

والكندي: نسبة إلى كندة (محل بالكوفة)، وفيها ولد.

---

(١) ينظر: الجامع في تاريخ الأدب العربي ص٧٨٣.

(٢) ينظر: الصبح المنبئ ص٢٠. وتِرَة: أي: ثأر، لسان العرب ٥/٢٧٤ (وت ر).

(٣) ينظر: البداية والنهاية ١١/٢٦٥، والصبح المنبئ ص٢٠،

(٤) ينظر: تاريخ بغداد ٤/١٠٢، ووفيات الأعيان ١/١٢٠، وسير أعلام النبلاء ١٦/١٩٩، والأعلام ١/١١٥.

(٥) ينظر: وفيات الأعيان ١/١٢٠، والبداية والنهاية ١١/٢٦٥، وبغية الطلب في تاريخ حلب ٢/٦٣٩، وأبجد العلوم ٣/٧٣،

والمتنبي لقبه: وقد اختلف في تلقيبه بهذا اللقب إلى أقوال، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى.

مولده:

ولد المتنبي في الكوفة، سنة ثلاث وثلاثمائة للهجرة، وإليها نسب.

نشأته:

نشأ بالشام، بعد أن تنقّل به والده عندما رأى نبوغه، فجالس الكثيرين من علماء زمانه، كالزجاج، وابن السراج، وابن دريد، وغيرهم.

وقد نشأ محبا للعلم والأدب، وصحب الأعراب، فجاء للكوفة بعد سنين بدويا قحا، وكان تعلم الكتابة والقراءة، فلزم أهل العلم والأدب، وأكثر من ملازمة الورّاقين[١].

علمه وتحصيله:

الناظر إلى شعر المتنبي يرى أنه لا يصدر إلا من عالم لغوي وبلاغي ناقد، فالمتنبي قدم الشام في صباه، واشتغل في فنون الأدب، ومهر فيها، وتضلع من علم اللغة، وجالس الكثيرين من العلماء، وله مواقف معهم تدل على براعته في اللغة والأدب.

فقد سأله مرة أبو علي الفارسي صاحب الإيضاح والتكملة: كم لنا من الجموع على وزن (فِعْلَى)؟ فأجابه سريعا بلا تردد: حِجلى وظِربى. قال الفارسي: "ففتشت كتب اللغة ثلاث ليال فلم أجد لهما ثالثا"[٢].

وكان له مع ابن خالويه مناظرات مشهودة في مجلس سيف الدولة[٣].

وكان قوي الذاكرة والحفظ، فكان أكثر علمه من الوراقين؛ لملازمته إياهم - كما سبق - فجلس يوما عند وراق وقد أحضر رجل كتابا من كتب الأصمعي نحو ثلاثين ورقة ليبيعه، فأخذ المتنبي ينظر فيه طويلا، فقال له الرجل: يا هذا، أريد بيعه وقد قطعتني عن ذلك، وإن كنت تريد حفظه فهذا - إن شاء الله - يكون بعد شهر، فقال له: فإن كنت قد حفظته في هذه المدة مالي عليك؟ قال: أهب لك الكتاب، فأخذ الوراق الدفتر من يده، فأقبل المتنبي يتلوه عليه إلى آخره، ثم استلمه فجعله في كمه، فقام صاحبه وتعلّق به وطالبه بالثمن، فقال المتنبي: ما إلى ذلك سبيل، قد وهبته لي، فتجادلا، فمنع الوراقَ من عنده الحاضرين، وقالوا له: أنت شرطت على نفسك هذا للغلام، فتركه عليه[٤].

---

(١) ينظر: المنتظم ٧/٢٥، وتاريخ بغداد ٤/١٠٣.

(٢) ينظر: شذرات الذهب ٢/١٤.

(٣) ينظر: البداية والنهاية ١١/٢٩٧، واتفاق المباني وافتراق المعاني ص١٦٠.

(٤) ينظر: المنتظم ٧/٢٥، وتاريخ بغداد ٤/١٠٣، وبغية الطلب ٢/٦٤٣، وسير أعلام النبلاء ١٦/٢٠٠.

ومما يدل على شدة حرصه على العلم والتحصيل، وكثرة اعتنائه بالكتب، ومداومة النظر فيها، وولوعه بقراءتها، وتصحيحها، والتعليق عليها؛ ما سجله لنا أبو نصر محمد الجَبَلِيّ في رسالته إلى الخالديين - وهو يشرح لهم مأساة مقتل المتنبي -؛ "... ولم يمض لهذا القول غير ثلاثة أيام حتى وافاني المتنبي، ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب، والطيب، والتجمّلات النفيسة، والكتب الثمينة، والآلات، ... وكان أكثرُ إشفاقه على دفاتره؛ لأنه كان قد انتخبها، وأحكمها قراءة وتصحيحا... "[1].

تنقّلاته ورحلاته:

بعد أن مكث المتنبي في الشام، وعلى بلاط سيف الدولة تسع سنوات إلى أن خرج من بلاط حلب مُغضبًا، ويَمّم دمشق فاستقبله واليها بالإكرام والإعزاز، ثم سار إلى الرملة وفي نيّته الشخوص إلى كافور الإخشيدي بمصر.

وفي جمادى الثانية سنة ست وأربعين وثلاثمائة (٣٤٦هـ) مدح كافور ببائيته[2]:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

وقد مدح المتنبي كافور بثماني قصائد، وأنهل عليه في أول سنة بمدائحه المشهورة؛ أملا في الجاه والمنصب، ولكن خابت آمال المتنبي، فما كان منه إلا مفارقته وهجاؤه في ليلة عيد الأضحى سنة خمسين وثلاثمائة (٣٥٠هـ) بداليته المشهورة[3]:

عيدٌ بأيَّةِ حالٍ عُدتَ ياعيدُ بِما مضى أم بأمرٍ فيك تجديدُ

فارتحل المتنبي إلى الكوفة، فوصل في شهر ربيع الثاني سنة ٣٥١هـ، وقد عدّد مراحل رحلته تلك في قصيدته[4]:

ألا كلُّ ماشِيَةِ الخَيزَلى فِدا كلّ ماشيةِ الهَيدَبى

وكان العراق آنذاك تحت سلطان بني بويه، فتقلّب المتنبي ما بين الكوفة وبغداد.

وقد التفّ حوله جماعة من علماء اللغة والنحو كعلي البصري، والربعي، وابن جني، فشرح لهم ديوانه واستنسخهم إياه.

وفي تلك الأثناء تُوفيت خولة أخت سيف الدولة الكبرى، فقال المتنبي[5]:

يا أختَ خَيْرِ أخٍ يا بنتَ خيرِ أبٍ كنايةً بهما عن أشرفِ النسبِ

---

(١) الصبح المنبئ ص ١٧٣.

(٢) ديوان المتنبي ص ٤٣٩.

(٣) ديوان المتنبي ص ٤٨٥.

(٤) ديوان المتنبي ص ٤٩٦.

(٥) ديوان المتنبي ص ٤٣٢.

وكان لهذا الرثاء أبلغ الأثر في نفس سيف الدولة، فأرسل إلى الشاعر هدية ومالا وأمانا بخطه، وكتابا يستدعيه، فكتب المتنبي قصيدته[١]:

فَهِمتُ الكتابَ أَبَرَّ الكُتُبْ فسمعا لأمرِ أميرِ العرَبْ

ولكنه لم يتوجّه إلى حلب عنادا وتكبرا؛ لما بلغه من أخبار سيف الدولة ومرضه وتوالي النكبات عليه وعلى السلطان.

وبعد هذا قصد المتنبي بلاد فارس لزيارة أبي الفضل بن العميد في أرّجان[٢]، فمدحه، ولبث عنده نحو ثلاثة أشهر، ثم انطلق إلي شيراز نزولا عند طلب عضد الدولة، ومدح الملك البويهي بعدة قصائد، وفي سنة ٣٥٤هـ غادره متشرقا إلى بلاده، وودعه بقصيدة كانت آخر ما نظم، مطلعها[٣]:

فِداً لك من يُقَصِّرُ عن مداكا فلا مَلِكٌ إذن إلا فداكا

وفاته:

خرج المتنبي من شيراز[٤] ميمِّما بغداد، ومعه كثير من الأموال والتحف، فلما وصل إلى (دير العاقول)[٥] اجتمعت عليه بنو أسد وبنو ضبّة بن يزيد الأسدي العيني ــ وقد سبق أن هجا المتنبي ضبة الأسدي ببائيته المشهورة[٦]:

ما أنصفَ القومُ ضبَّه وأُمَّــهُ الطُرطُبَّه

فاعترضه فاتك بن جهل الأسدي - خال ضبة - فاقتتلا، وقاتل المتنبي حتى أحسّ بالضعف، فعمد إلى الفرار، فقال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل[٧]:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقِرطاس والقلم

فقال له المتنبي: قتلتني، قتلك الله، وحمل على الأعداء، فقُتل هو وابنه محسّد وغلامه مفلح.

وكان هذا في السابع والعشرين من رمضان لسنة أربع وخمسين وثلاثمائة للهجرة (٣٥٤هـ).

(يتبع)

***

---

(١) ديوان المتنبي ص٤٣١.

(٢) أرّجان: ــ بفتح الهمزة فالراء المهملة المشددة ــ مدينة كبيرة ببلاد فارس، بينها وبين شيراز ستون فرسخا، ينظر: معجم البلدان ١/١٤٣.

(٣) ديوان المتنبي ص٥٨٣.

(٤) شيراز ــ بالكسر وآخره زاي ــ: بلد عظيم مشهور معروف ببلاد فارس. ينظر: معجم البلدان ٣/٣٨٠.

(٥) دير العاقول: بأرض العراق على شاطئ دجلة، وهو معروف بأرض الدير حاليا، بينه وبين بغداد خمسة عشر فرسخا. ينظر: معجم البلدان ٢/٥٢٠، وذكرى أبي الطيب ص١٨٣-١٨٧.

(٦) ديوان المتنبي ٥١٤.

(٧) ديوان المتنبي ٣٢٤.

حركات هدامة

لماذا هذه الكذبة؟

مسعود عالم / الطالب في جامعة جواهر لال نهرو

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين، وبعد:

إن كذبة نيسان أو كذبة ابريل (April Fool) هي عادة يمارسها العديد من الناس في دول العالم كلها في أول يوم من شهر نيسان كل عام عن طريق خداع الأصدقاء أو الجيران أو نشر أكاذيب كي يصدقها البعض، وذلك من أجل وضعهم في مواقف محرجة. وكل عام في أول يوم من شهر نيسان تكثر المداعبات والممازحات بين الناس ويزداد الكذب من أجل الضحك والمرح والتسلية غير أن البعض يذهب إلى أكثر من ذلك ويسبب الأذية والإزعاج لغيره في ذلك اليوم الذي يسمى بـ"عيد الكذب".

ففي هذا اليوم يستباح الخداع بأنواعه عن طريق الكذب والاستهزاء، ويوظف الذكاء والدقة والمهارة في ممارسة الخداع والكذب، وتبدأ وسائل الإعلام مع حلول هذا اليوم تحض الناس على الكذب من خلال اختلاق مجموعة من القصص الطريفة بمداعبة كذبة نيسان. وهي من صور التقليد الأعمى التي تسبب العواقب الوخيمة والحقد والضغائن والتقاطع والتدابر بين الناس، وتؤدي إلى الويلات بين الإخوة وبين أهل البيت، وتعطيل مصالح الناس، وتوقعهم في خسائر مادية ومعنوية، وإلى غير ذلك.

وقد قرأنا في الصحف اليومية عن كثير من الحوادث في هذا اليوم، فمن الناس من أخبر بوفاة والده أو زوجته أو بعض محبيه فلم يحتمل الصدمة ومات، ومنهم من أخبر بإنهاء وظيفته أو بوقوع حريق أو حدوث تصادم لأهله فأصيب بشلل أو جلطة أو ما شابهها من الأمراض، وبعض الناس قد تحدث معه صديقه كذبا عن زوجته أنها شوهدت مع رجل فسبب ذلك قتلها أو تطليقها، وهكذا تقع كل يوم سلسلة من الأحداث التي لا نهاية لها، وفي كل عام يزداد عدد المروجين لهذه الكذبة، ويتفننون بشتى أنواع الإشاعات والكذبات التي لا تخطر على بال أحد.

قد نقلت الصحيفة اليومية "الرياض" في الأعوام الماضية كثيرا من القصص والحوادث التي أوقعت الناس في خسائر مادية ومعنوية وسببت التقاطع والتدابر بين الناس. وأذكر هنا حادثتين ليقدّر الناس مبلغ خسائر هذه الكذبة.

١– حادثة مريم مع أخيها: تقول مريم: تفاجأت باتصال أخي في وقت متأخر من الليل حيث كنت في رحلة مع صديقاتي خارج البحرين، ويخبرني بأن والدي قد طلق أمي بسبب

تصرف لم يكن في الحسبان، وبأنه طلب منها جميع حاجياتها لتذهب بيت جدي، لم أكد أسمع الخبر حتى سقط هاتفي أرضا من هول المفاجأة، وقد اتصل مرة أخرى يقول لي "نيسان قادمة" أي إنها مجرد كذبة هذا الشهر، وما قاله ليس له أساس من الصحة.

ومنذ ذلك الحين أنا أكره مثل تلك الكذبات ولا أحب الترويج لها، فالأجواء القلقة التي عشتها لمدة دقائق معدودة لا أحب أن تتكرر مع غيري.

٢–كذبة أوصلت المرأة إلى الحالة الهستيرية: تقول لؤلؤة الدوسري أن صديقتي تعرضت لكذبة كادت تنهي حياتها الزوجية، تواصل الدوسري إن صديقتي كان لديها مرض الشكول واستغلت إحدى النسوة هذا النقص والعيب فأخبرتها بأنها رأت زوجها مع فتاة جميلة في إحدى المقاهي الخاصة ويبدو في حالة غرام معها، وأنها يجب أن تعد الأيام والليالي معه إلى أن تصل ورقة طلاقها، وبالفعل انهارت صديقتي وأصبحت في حالة هستيرية، واتصلت بزوجها لتطلب الطلاق، وسقطت مغشيا عليها، وعندما نقلت إلى المستشفى وأعطيت بعض المهدئات روت لزوجها القصة بكاملها، وتفاجأت عندما قال لها إن المرأت التي أخبرتها بعثت برسالة نصية تقول لها: "إنها كذبة ابريل" تضيف الدوسري: بعد تلك الحادثة الخشنة التي حدثت مع صديقتي فإني أبغض كل الأشخاص الذين يروجون لهذه الكذبة ويضعون حياة الناس في خطر.

وهكذا تنقل أكثر الصحف سلسلة من القصص والحوادث التي لا نهاية لها، وتزداد كل عام بسرعة فائقة، وكل من لديه عقل سليم يعلم جيدا أن جميعها من الكذب الذي يحرمه الدين ويأباه العقل والمروءة. ومما لا ريب فيه أن هذه الكذبة انتشرت بشكل واسع بين غالبية شعوب العالم مع أنها تشتمل على ثلاثة عناصر سيئة وهي الكذب والخداع وإيذاء الناس.

فالسؤال المهم الذي يجول في بال من لديه عقل سليم وقلب صادق هو ما هي الحقيقة الخفية وراء هذه الكذبة في أول يوم من شهر نيسان؟ ولماذا يستباح فيه الكذب؟ وكيف تطور هذا التقليد الأعمى ليصبح احتفالا مقدسا، وقد ذكرت عدة وجوه لانتشار هذا الداء، منها: أنه عندما كان المسلمون يحكمون أسبانيا قبل حوالي ألف سنة وكانوا في ذلك الوقت قوة لا يمكن تحطيمها، وكان النصارى الغربيون يتمنون أن يقصوا الإسلام من العالم، وحاولوا الوقوف أمام امتداد الإسلام في أسبانيا والقضاء عليه، ولكنهم لم يفلحوا، وحاولوا مرات عديدة ولم ينجحوا أبدا. بعد ذلك أرسل الكفار جواسيسهم إلى أسبانيا ليدرسوا ويكتشفوا سر قوة المسلمين وبدءوا يفكرون في استراتيجية تكسر هذه القوة، وبناء عليه بدءوا يرسلون الخمور والسجائر إلى أسبانيا مجانا، وهذه الحيلة من الغرب أعطت نتائجها، وبدأ الايمان يضعف عند المسلمين خاصة في جيل الشباب بأسبانيا. وكانت نتيجة ذلك أن النصارى الغربيين أخضعوا كل أسبانيا تحت سيطرتهم، وسقط آخر

حصن للمسلمين وهو غرناطة في أول أبريل. ولذلك اعتبروها بمعنى خدعة أبريل (April Fool) ومن تلك السنة إلى الآن يحتفلون بذلك اليوم ويعتبرون المسلمين حمقى.

وعندما يحضر المسلمون هذه الاحتفالات ويلعبون بهذه الفكرة الخبيثة فهم يقلدون الأعداء التقليد الأعمى الذي يؤكد غباء المسلمين.

ويقول البعض: إن كذبة نيسان تقليد أوربي بدأت بإطلاق الشائعات والأكاذيب، ويطلق على من يصدق الشائعات والأكاذيب اسم ضحية كذبة نيسان، وبدأت هذه الكذبة عندما جلس ملك فرنسا شارل التاسع على العرش وأصدر مرسوما ملكيا يقضي بنقل رأس السنة إلى الأول من كانون الثاني، وقبل هذا كان الغربيون يحتفلون بعيد رأس السنة في أول نيسان من كل عام ويتبادلون الهدايا والتهاني، فالذين أيدوا هذا التغير يرسلون في أول نيسان إلى معارفهم هدايا كاذبة، فيضعون لهم في علب جميلة قطعا من الحلوى ممزوجة بالملح والخل، أو يرسلون إليهم رسائل من أشخاص وهميين، وكان الهدف هو إغاظة المتمسكين بالتقويم القديم، ومن هنا تولدت كذبة نيسان.

والبعض يقول إن تاريخها يعود إلى أصل هندي إذ كان الهنود يحتفلون بعيد اسمه "هولي" ويبدأ هذا ببداية الربيع، وينتهي آخر شهر آذار، لذا كان الهنود يودعون عيد الهولي في أول نيسان بالأكاذيب البيضاء والدعايات المضحكة واستمر ذلك، ولكن لا توجد الدلائل الأكيدة لإثبات هذه الأقوال.

ويؤكد الباحثون أن كذبة نيسان لم تنتشر بشكل واسع بين غالبية شعوب العالم إلا في القرن التاسع عشر.

ولكن لا يهمنا معرفة أصل هذه الكذبة والأمر الذي يستحق العناية به هو حكم الكذب في هذا اليوم أو غيره من الأيام. ولا شك فيه أنها بدعة أحدثها أعداء المسلمين، ولا أصل له في الشريعة الإسلامية، وأنها لم تكن في عصور الإسلام الزاهرة، والكذب داء عظيم إذ يعد من قبائح الذنوب وفواحش العيوب وهو من مساوئ الأخلاق، وحذرت الشرائع منه، وعليه اتفقت الفطر، وبه يقول أصحاب المروءة والعقول السليمة، وعلى تحريمه وقع الإجماع، والصدق أحد أركان بقاء العالم، وهو أصل المحمودات، وركن النبوات، ونتيجة التقوى، ولولاه لبطلت الشرائع. وقد جعل من آيات النفاق وعلاماته، ويعد صاحبه مجانبا للإيمان، فالكذب والإيمان لا يجتمعان، والكذب ريبة ومفسدة على صاحبه، وللكاذب عاقبة غير حميدة في الدنيا والآخرة، ولم يأت في الشرع جواز الكذب إلا في أمور معينة لا يترتب عليها أكل حقوق ولا سفك دماء ولا طعن في أعراض، بل هذه المواضع فيها إنقاذ للنفس أو إصلاح بين اثنين أو مودة بين زوجين، فالكذب في أول يوم من شهر

نيسان لم يأت في الشريعة لهذا اليوم أصل، بل هو بدعة محدثة يحرم العمل بها، وقد حرم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أنواع الكذب كلها، لأنها يترتب عليه مفاسد كثيرة يقول تعالى: "إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون". (النحل: ١٠٥) وأخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان". (متفق عليه) قال النووي: "الذي قاله المحققون والأكثرون –وهو الصحيح المختار– أن معناه: أن هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال متخلق بأخلاقهم".

ويظن بعض الناس أنه يحل له الكذب إذا كان مازحا، وهو العذر الذي يتعذرون به في كذبهم في أول نيسان، وهذا خطأ ولا أصل لذلك في الشرع، والكذب حرام مازحا كان صاحبه أو جادا، أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا، قال: "إني لا أقول إلا حقا". (سنن الترمذي: ٢٤٩٤)

وفي رواية أخرى يقول معاوية بن حيدة، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له". (رواه الترمذي: ٢٣٥)

فاتضح أن الكذب حرام حتى في المزاح، وكذبة نيسان هي بدعة محدثة أحدثها أعداء الإسلام ولم تكن في عصور الإسلام الزاهرة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم".

وبعد أن عرفنا الحقيقة يجب علينا أن نقطع وعدا على أنفسنا بأن لا نحتفل بذلك اليوم الخاص، ونصبح مطبقين لشريعة الإسلام ولا نسمح لإيماننا بأن يضعف أبدا.

***

المراجع ولمصادر:

١– www.wikipedia.org/wiki/april_fools_day.

٢– www.museumofhoaxes.com/hoax/hoaxipedia/april_foolsday-orgin

٣– www.april-fools.us/history-april-fools.htm.

٤– الكذب والكاذبون، مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث بطنطا للنشر والتحقيق والتوزيع.

٥– الكذب: مظاهره وعلاجه، محمد بن ابراهيم الحمد، موقع دعوة الإسلام.

***

ركن الطلاب

خدمة الحديث النبوي في القرن الثالث

حسن البناء عبد الغفور
السنة الثانية للفضيلة
الجامعة السلفية، بنارس

بين يدي المقال

الحمد لله الذي أنزل القرآن، نورا وهداية للإنس والجان، وبعث رسوله برسالة الرحمة والأمان، لينقذ البشرية من عواقب الذل والهوان، وبعد:

فإن السنة النبوية –على صاحبها أزكى صلاة وسلام– التي هي عبارة عن أقواله –عليه السلام– وأفعاله وتقاريره التي أقر عليها صحابته الكرام –رضي الله عنهم– تحتل مكانة غير مدفوعة، ومنزلة لا يستهان بها، وذلك أنها تكاشف الناس بحوايا القرآن وخباياه، وتفصل إجماله، وتقيد إطلاقه، حتى يكونوا منه على بصيرة، ويهتدوا إلى محجة بيضاء ليلها كنهارها، ومن هنا نهض المحدثون –من أشرف البرية علما– إلى خدمة هذه المجموعة الطيبة من لآلي النبي صلى الله عليه وسلم رواية ودراية وكتابة وتدوينا ودفاعا، وشمروا عن ساعد الجد لأداء هذه الأمانة العظيمة.

قال ابن الجوزي: "ولما لم يمكن أحدا أن يدخل في القرآن شيئا ليس منه أخذ أقوام يزيدون في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقصون ويبدلون ويضعون عليه ما لم يقل، فأنشأ الله –عز وجل– علماء يذبون عن النقل، ويوضحون الصحيح ويفضحون القبيح".[1] وقال عليه السلام: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين".[2]

ونقل ابن الجوزي عن الدار قطني أنه قال: "يا أهل بغداد لا تظنون أن أحدا يقدر يكذب على رسول الله وأناحي"، وعن ابن المبارك أنه قيل له: هذه الأحاديث المصنوعة، فقال: "تعيش لها الجهابذة"، وعن سفيان: "ما ستر الله عز وجل أحدا يكذب في الحديث".[3]

فبأمثال هؤلاء الأعلام تكفل الله جل شأنه بحفظ السنة النبوية إلى يوم يبعثون، وقد حاولت في مقالي هذا إلقاء بعض الضوء على ما بذل المحدثون الأعلام –رحمهم الله– من جهود

---

[1] الموضوعات لابن الجوزي ١/١٠.
[2] الترمذي: ٥٩٧.
[3] الموضوعات لابن الجوزي ١/٣١ و٣٣.

مشكورة في سبيل خدمة السنة النبوية في القرن الثالث الذهبي حتى سلموها إلى من بعدهم نقية طرية كما كانت.

ما هي خدمة الحديث النبوي؟

إن خدمة السنة النبوية تعني حفظها صدرا أو كتابا وروايتها وإزالة الشوائب واللوثات عنها، وصيانتها من القواصم التي تهدد كيانها في كل عصر وزمان، ومجابهة من حاول التشكيك فيها بأوهى الشبهات، حتى لا يبقى على وجهها البراق عوار ولا غبار، وشرح معانيها واستخراج المسائل منها، كي يتأسى الناس بأسوة نبيهم عليه الصلاة والسلام على هدى ونور وبصيرة، والا يتمار بأوامرها والاحتراس عن زواجرها.

وقد قام المحدثون بكل هذا وذاك بربانية ومصداقية، فأهدوا إلى الأمة الإسلامية مجموعة قيمة من الأسفار الضخام التي خدمت السنة النبوية من كافة النواحي التي أسلفتها، والكتب الستة، وكتب الجرح والتعديل، وكتب الضعفاء، وكتب الموضوعات، والمسانيد، والمعاجم، والسنن، والأجزاء، وكتب مصطلح الحديث، وكتب الدفاع عن السنة، وما إلى ذلك من الأسفار الخطيرة التي أُلّفت خدمة للسنة المطهرة، هذه الأسفار أنصع وأقوى دليل يبرهن على ما سلف، وفي الوقت نفسه كانوا أسوة صالحة لمن اقتدى بهم علما وعملا، كأن السنة قد ارتسمت في تحركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وتصرفاتهم.

قال المروزي: قال لي أحمد: "ما كتبت حديثا إلا وقد عملت به، حتى مر بي أن النبي احتجم وأعطى أبا طيبة دينارا، فأعطيت الحجات دينارا حين احتجمت".[١]

ومن أسعد بحظه ممن وفق –بإذن الله– إلى هذه النعمة العظيمة، وجعل نفسه في زمرة أولئك الذين حفظ الله بهم ذكره الميمون ووحيه المصون وسنة نبيه المطهرة على صاحبها ألف ألف صلاة وتحية (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[٢] قال ابن كثير: "ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.[٣] والحديث النبوي يدخل في هذا التقرير إذ هو شرح له، وفصل لمجملاته، قال الشافعي: "وكل شيء منها بيان في كتاب الله، فكل من قبل عن الله فرائضه في كتابه، قبل عن رسول الله سننه، لفرض الله طاعة رسوله على خلقه، وأن

---

[١] المسند ١/٨٢–٨٣.
[٢] النحل: ٩.
[٣] ابن كثير.

ينتهوا إلى حكمه، ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل، لما افترض الله من طاعته".[١] فدخلت السنة في الذكر إذ هي شرح له، واستطراد في بيانه.

فضل من نهض بهذا العمل الجليل:

سمع الصحابة من رسول الله وسمع منهم تابعوهم وسمع منهم أتباعهم وتسلسل ذلك إلى عصر التدوين وإلى يومنا هذا، وبذلك يتلقى جيل شرعة ربه عن آخر، ولا يزال إلى نفخة الصعق إن شاء الله، وهل هناك عمل أفضل وأقبل من هذا النشاط الجليل. قال عليه السلام: "تسمعون، ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم".[٢] وقال عليه السلام: "نضر الله امرءا سمع منا حديثا، فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه".[٣]

كيف كان بدء التدوين؟

مر كتابة الحديث بالعديد من المراحل: فقد نهى عليه السلام في بداية الأمر عن الكتابة إطلاقا، خوفا على الناس من انشغالهم بذلك عن كتاب الله: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه".[٤] ولم يسمح بذلك إلا لعبد الله بن عمرو حين قال: "اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق".[٥] ولأبي شاه، روي عن أبي هريرة أنه لما فتح الله على رسوله مكة قام وخطب في الناس، فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه، فقال: يا رسول الله! اكتب لي، فقال: "اكتبوا له".[٦] وقال أبو عبد الرحمن (عبد الله بن أحمد): "ليس يروى في كتابة الحديث شيء أصح من هذا الحديث"[٧] وقد اشتهرت لعبد الله بن عمرو صحيفته بـ"الصحيفة الصادقة" تضم ألف حديث.[٨] وهي وثيقة علمية تاريخية تثبت كتابة الحديث بين يديه عليه السلام وبإذنه.[٩] وبذلك عمت السماحة الجميع فيما بعد، بعد أن كانت خالصة لابن عمرو وأبي شاه، وكذلك استمرت الكتابة على قدم وساق حتى بداية القرن الثاني الذي بدأ فيه التصنيف على الأبواب ولم يزل إلى أن طلع "القرن الثالث الذهبي"، وهو عصر التدوين، أصبح كل نوع من أنواع الحديث علما خاصا مثل علم

---

[١] الرسالة ص: ٣٣.
[٢] الصحيحة: ١٧٨٤.
[٣] أبو داود: ٣٦٦٠.
[٤] صحيح مسلم مع النووي.
[٥] ...
[٦] فتح الباري ١/٢١٧.
[٧] المسند ١٢/٢٣٥.
[٨] أسد الغابة ٣/٢٣٣.
[٩] السنة قبل التدوين ص: ٣٥.

الحديث الصحيح، وعلم المرسل، وعلم الأسماء والكنى، وهكذا.[1] وحول هذا القرن الميمون أنا أتكلم في هذا المقال، والله ولي التوفيق.

إن القرن الثالث اختص بميزة خلت عنها القرون التي قبلها، فهو الذي تم فيه تدوين السنة النبوية، ولم يبق بعد ذلك إلا الاستدرال والاستخراج والتهذيب والتنقيح، والشرح والإيضاح.

أما السبيل إلى التعرف على الجهود المحمومة التي أفرغها المحدثون الكرام في هذا القرن المبارك بالنسبة إلى الحديث النبوي فيبرز لنا جليا لدى نظرة استشرافية على حياة أولئك الذين عاشوا فيه من أهل الحديث، ولا أكثر إذا قلت: إن غالبية الخدمات التي حظيت بها السنة المزكاة شهدها القرن الثالث، ومن ثم سموه بـ "العصر الذهبي"، فهذه الكتب الستة التي سدَّ صيتها الآفاق لم يتم إخراجها الا في هذا القرن المجدود، فأسطر فيما يلي تراجم بعض منهم، تظهر من خلالها جهودهم في هذا الخصوص.

الإمام البخاري وصحيحه:

ولد الحافظ الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ببلدة "بخارى" سنة ١٩٤هـ، وبدأ يحفظ الحديث وهو في الكُتّاب، قال محمد بن أبي حاتم الوراق: قلت لأبي عبد الله: كيف كان بدء أمرك في طلب الحديث؟ قال: الهمت حفظ الحديث وأنا في الكتّاب، قال: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ فقال: عشر سنين أو أقل، فلما طعنت في ست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك، ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء، ثم خرجت مع أبي وأخي أحمد إلى مكة، فلما حججت رجع أخي، وتخلفت بها في طلب الحديث، فلما طعنت في ثمان عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم، وصنفت كتاب "التاريخ" إذ ذاك عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم في الليالي المقمرة.

قال البخاري: لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم، أهل الحجاز ومكة، والمدينة، والكوفة، والبصرة، وواسط، وبغداد، والشام، ومصر، ولقيتهم كرات، قرنا بعد قرن، ثم قرنا بعد قرن، أدركتهم وهو متوافرون أكثر من ست وأربعين سنة، أهل الشام، ومصر والجزيرة مرتين، وبالبصرة أربع مرات في سنين ذوي عدد، وبالحجاز ستة أعوام، ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع محدثي أهل خراسان.[2]

---

[1] مقدمة ابن الصلاح ص: ١١.

[2] تاريخ ابن عساكر ٢٨/٤٣-٤٤.

وقال الخطيب: رحل في طلب العلم إلى سائر محدثي الأمصار، وكتب بخراسان، والجبال، ومدن العراق كلها، وبالحجاز، والشام، ومصر، وورد بغداد دفعات.[1] قال أبو الهيثم الكشميهني: سمعت الفربري يقول: سمعت البخاري يقول: ما وضعت في كتاب الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين، وعنه قال: صنفت الجامع من ستمائة ألف حديث في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله.[2]

ومن ميزات صحيحه أنه اتفق الناس على أنه يحتل مكانة تخلف القرآن، وأنه أتى فيه من دقائق الأبواب بما أكره جمعا من الفضلاء أن يقولوا: "فقه البخاري في تراجمه"[3] توفي سنة ٢٥٦هـ، وقد تجلى بهذا البيان الوجيز مدى جهود هذا العَلم البارز في خدمة السنة النبوية، ولو أحطت بكافة النواحي لطال المقال وتشرد البال.

الإمام مسلم وصحيحه:

ولد الإمام الفريد حجة الإسلام أبو الحسن القشيري سنة ٢٠٤هـ[4]، أحد أعلام المحدثين، رحل إلى الحجاز والعراق، والشام، وسمع يحيى بن يحيى النيسابوري، وأحمد، وإسحاق بن راهويه، وعبد الله بن مسلمة وغيرهم، وقدم بغداد غير مرة، فروى عنه أهلها، وآخر قدومه إليها في سنة ٢٥٩هـ، وروى عنه الترمذي، وكان من الثقات المأمونين، قال محمد الماسرجس: سمعت مسلم بن حجاج يقول: "صنف هذا المسند الصحيح من ثلاث مائة ألف حديث"[5] واعتنى هذا الإمام المبرز والمحدث المميز بتمييز الصحيح من السقيم، والمعوج من القديم إلى مدى يفضي إلى عالم الاندهاش، وإيراده في باكورة صحيحه مجموعة طيبة من الأحاديث والآثار التي تؤكد على التمييز والتنقيح أبرز دليل على ما أسلفت، يمتاز صحيحه بحسن السياق، وجودة الإيراد، وكمال النسق، وجمال التنظيم، ويخلف صحيح البخاري منزلة وعظمة، وبهذا تتجلى غاية عنايته بالحديث النبوي على صاحبه أتم صلاة وسلام، أجزل الله له الجزاء.

الإمام أبو داود وسننه:

ولد الإمام شيخ السنة مقدم الحفاظ أبو داود الأزدي السجستاني محدث البصرة سنة ٢٠٢هـ، ورحل وجمع وصنف وبرع في هذا الشأن، سمع بمكة والكوفة وحران ودمشق ومصر.[6] وسكن

---

[1] تاريخ بغداد ٢/٤—٥.

[2] هدي الساري ص: ٧٧٥.

[3] المصدر السابق: ١٤.

[4] تذكرة الحفاظ ٢/٥٨٨.

[5] شذرات الذهب ٢/١٤٤.

[6] سير أعلام النبلاء ١٣/٢٠٣.

البصرة بعد هلاك الخبيث طاغية الزنج، فنشر بها العلم، وكان يتردد إلى بغداد، قال الخطيب: يقال: إنه صنف كتابه "السنن" قديما، وعرضه على أحمد فاستجاده واستحسنه، وقال الصاغاني وإبراهيم الحربي: لما صنف أبو داود كتاب "السنن": "ألين لأبي داود الحديث، كما ألين لداود عليه السلام الحديد.[1] قال الحاكم: سمعت زبير بن عبد الله بن موسى، سمعت محمد بن مخلد يقول: كان أبو داود يعني بمذاكرة مائة ألف حديث، ولما صنف "السنن" وقرأه على الناس، صار كتابه لأصحاب الحديث كالمصحف، يتبعونه ولا يخالفونه، وأقر له أهل زمانه بالحفظ والتقدم فيه، قال الحافظ موسى بن هارون: خلق أبو داود في الدنيا للحديث، وفي الآخرة للجنة، وقال الحافظ ابن منده: "الذين خرجوا وميزوا الثابت من المعلول، والخطأ من الصواب أربعة: البخاري ومسلم، ثم أبو داود والنسائي.

وقال الحاكم: أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة، سمع بمصر، والحجاز، والشام، والعراقين، وخراسان، وقد كتب بخراسان قبل خروجه إلى العراق، في بلده وهراة، وكتب ببغلان عن قتيبة، وكتب بالري، وكتب بنيسابور، ثم رحل بابنه أبي بكر إلى خراسان.[2]

وثمة أقوال كثيرة في الثناء على هذا الإمام المبرز، مما يدل على عظمته، ومكانته في هذا الشأن وجهوده الجبارة التي بذلها في مضمار الحديث وجمعه وتدوينه، وتنقيحه، وتمييز صحيحه من دخيله وكان يولي الحيطة والحذر في التحديث أهميتهما اللائقة بهما، يقول: "رأيت خالد بن خداش ولم أسمع منه، ولم أسمع من يوسف الصفار، ولا من ابن الأصبهاني، ولا من عمرو بن حماد، والحديث رزق".[3]

توفي بالبصرة، يوم الجمعة، منتصف شوال سنة ٢٧٥ رحمه الله تعالى.[4] ومن ميزات سننه أنه يعقب كل حديث أو أكثر الأحاديث بأمور هامة تتصل بالأسانيد، واشتهرت هذه المواضع من "سننه" بمواضع "قال أبو داود" مما يشيد إلى أهميته وعظم شأنه، فقد سعد هذا الإمام بخدمة الحديث النبوي في القرن الذهبي، وفر الله له الجزاء الذي لا انقطاع له.

الإمام النسائي وسننه:

ولد أبو عبد الرحمن النسائي القاضي الحافظ، أحد الأعلام البارزة سنة ٢١٥هـ، قال أبو بكر الدمياطي للنسائي: ولدتُ في سنة ٢١٤، ففي أي سنة ولدت يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: أشبه أن يكون

---

[1] تهذيب التهذيب ٤/١٧٢.
[2] سير الأعلام ١٣/٢١٢.
[3] المصدر السابق ١٣/٢٠٩.
[4] وفيات الأعيان ٢/٤٠٥.

في ٢١٥، لأن رحلتي الأولى إلى قتيبة كانت في سنة ٢٣٠، أقمت عنده سنة وشهرين.[١] وكان إمام عصره في علم الحديث وسكن مصر، ونشرت تصانيفه بها، وهو أحد الأئمة الأعلام، صنف "السنن" وغيرها من الكتب.[٢] وكان يتيمة عصره في طلب الحديث النبوي أينما كان. قال علي بن آدم الأيتوبي: "كان رحمه الله في عصره في طلب الحديث، وكانت عناية طلاب العلم آنذاك منقطعة في إحياء الحديث وغيره، وكان النسائي من نابهي الطلبة الذين كانت لهم مرحلة طويلة، بدأ بمدن إقليمه خراسان، ثم دخل العراق، والشام والحجاز، والجزيرة ومصر التي جعلها سكنا له من بعد – ومما ينبئ عن ولعه بالحديث وروايته وتلقيه – انه لما منعه الحارث بن مسكين عالم مصر وقاضيها من الدخول إليه لأمر ما، كان يجيئ، ويقعد خلف الباب، ويسمع. ومن الجدير بالذكر أن رحلته لم تقتصر على أخذ الحديث فقط، بل أخذ كذلك علوم القرآن والقراءة عن أهلها.[٣]

ومما يدل على حيطته وترقبه في تخريج الأحاديث أن أبا القاسم الزنجاني قال: إن لأبي عبد الرحمن في الرجال شرطا أشد من شرط البخاري ومسلم، وكان ابن الحداد كثير الحديث، ولم يحدث عن أحد غير أبي عبد الرحمن النسائي فقط، وقال: "رضيت به حجة بيني وبين الله.[٤] ومن ثم قال شيخنا صفي الرحمن المباركفوري رحمه الله: "وسننه أقل السنن بعد الصحيحين حديثا ضعيفا"[٥] وبهذه الخدمات التي أهداها إلى الحديث النبوي أمسى الإمام كغيره من الأعلام حيا خالدا على ألسن الناس. ومن ميزاته سننه ما ذكرت آنفا من قلة الضعاف فيه، وأن في بعض المواضع منها دقائق الأبواب التي تحتوي على معان جزيلة وإشارات هامة، توفي سنة ٣٠٣هـ، وعنه أحاديث وأخبار لا يسمح ضيق المقال بإيرادها، وقد تبين من خلال السطور السالفة مدى عناية هذا الإمام الفريد بالحديث النبوي، وجهوده الملحوظة في المحافظة عليه، ونفي الأباطيل عنه فجزاه الله خيرا عن جميع المسلمين، وجعل أعماله الفضيلة في ميزان حسناته.

الإمام الترمذي وسننه:

ولد الإمام قدوة الأمة أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي سنة ٢٠٠هـ بمدينة ترمذ، ونشأ فيها وترعرع، أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث، وأحد العلماء الحفاظ الأعلام.

---

[١] تاريخ ابن عساكر ٣/ ٧١.
[٢] تاريخ ابن عساكر ٣/ ٧١.
[٣] ذخيرة العقبى ١/ ١٣–١٤.
[٤] ابن عساكر ٣/ ٨٢–٨٣.
[٥] إتحاف الكرام ص: ٤٦١.

قال الحافظ: "طاف البلاد، وسمع خلقا من الخراسانيين، والعراقيين، والحجازيين.[١]
وذكره ابن حبان في "الثقات" وقال: "كان ممن جمع وصنف، وحفظ وذاكر".[٢]
نصر السنة النبوية بكافة الوسائل التي وجد إليها السبيل، وجمع الأحاديث من شتى أرجاء المعمورة، ثم خاطها في سمط ذهبي، فبرز إلى حيز الوجود جامعه المنيف.
نقل الذهبي عن أبي علي منصور بن عبد الله الخالدي، قال: قال أبو عيسى: صنفت هذا الكتاب فعرضته على علماء الحجاز، والعراق، وخراسان، فرضوا به، ومن كان في بيته هذا الكتاب، فكأنما في بيته نبي يتكلم.[٣]
قال أبو العلا المباركفوري: "فائدة أخرى: اعلم أن الإمام أبا عيسى الترمذي مع إمامته، وجلالته في علوم الحديث، وكونه من أئمة هذا الشأن، متساهل في تصحيح الأحاديث وتحسينها، ثم قال: قلت: عدم اعتمادهم على تصحيح الترمذي وتحسينه، إنما هو إذا تفرد بالتصحيح أو التحسين.[٤]
قلت: لا يغض ذلك من منزلته شيئا، فهو سعيد بخدمة الحديث النبوي، وإن ندت منه بعض الزلات.
ومن ميزات جامعه سرد المذاهب الفقهية في نهاية كل باب، وهو أمر تفرد به عن غيره، والدلالة على مخارج الحديث ومصادره، وهذا أيضا لم يسبقه إليه أحد، واعتبر نواة أساسية لفن التخريج.
توفي بالترمذ سنة ٢٧٨هـ[٥] ما استنزف في مضمار الإخراج والإيراد من أغلى ساعاته، وأقوى طاقاته، وأخذ من هذا العلم العظيم حظوته الموفورة، وساهم في خدمة الحديث رواية ودراية وتحقيقا وتنقيحا واستنباطا واستفادة، جزاه الله أحسن ما يجازي به عباده الصالحين.

الإمام ابن ماجه وسننه:

ولد الحافظ الكبير، والمحدث الشهير بديار القزوين أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه الربعي سنة ٢٠٩هـ وحيي صباه الباكر في هذه البقعة المباركة، ثم جذبه الشوق إلى تلقي

---

[١] مقدمة التحفة ص: ٣٦٧.
[٢] تهذيب الكمال ٢٥٢/٣٦.
[٣] تذكرة الحفاظ ٦٣٤/٢.
[٤] مقدمة التحفة ص: ٢٧٥.
[٥] تهذيب الكمال ٢٥٢/٣٦.

الأحاديث، والاستنارة بأضوائها المستدامة، فتوجه تائقا إلى دمشق وسمع بها حفاظها، ثم إلى مصر، ثم إلى حمص، ثم إلى العراق.[١]

قال أبو يعلى الخليلي: "ابن ماجه ثقة كبير، متفق عليه، محتج به، له معرفة وحفظ، ارتحل إلى العراقين، ومكة، والشام، ومصر، قال الذهبي: "سنن أبي عبد الله كتاب حسن لولا ما كدره أحاديث واهية ليست بالكثيرة".[٢]

قال الذهبي: "وعن ابن ماجه قال: عرضت هذه "السنن" على أبي زرعة الرازي فنظر فيه، وقال: أظن إن وقع في أيدي الناس، تعطلت هذه الجوامع، أو أكثرها، ثم قال: لعل لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثا مما في إسناده ضعف أو نحو ذا. وقال: قلت: قد كان ابن ماجه حافظا ناقدا صادقا، واسع العلم.

وإنما غض من رتبة "سننه" ما في الكتاب من المناكير، وقليل من الموضوعات، وقول أبي زرعة –إن صح– فإنما عنى بثلاثين حديثا، الأحاديث المطرحة الساقطة، وأما الأحاديث التي لا تقوم بها حجة، فكثيرة، لعلها نحو الألف."[٣]

قلت: وبالرغم من كل هذا وذاك فسنن ابن ماجه القزويني التي جمعها بكد اليمين، وعرق الجبين محاولة كبيرة محمودة في عصر التدوين الذهبي.

وما سطرت فيما مضى من أنه ارتحل إلى هنا وهناك يطلب الأحاديث، وعناء الأسفار من دار إلى دار معروف في ذلك العهد عصر الأبرار، ففي ذلك مؤشر واضح إلى ما أقول من أنه تحمل التعب واللأواء في اختبان الأحاديث وجمعها والمحافظة عليها لأنه الإسلام، ولا يقلل من شأنه ما تحتوي سننه من مناكير وواهيات لا يصلح عليها الاعتماد، ولا يصح بها الاعتضاد، فإنه أسند وبرئت من العهد ذمته، وندعو الله له ولغيره من أنصار السنة بالخير والظفر والسعادة والهناء في الآخرة.

توفي الإمام يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء، لثمان بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين –رحمه الله تعالى– وصلى عليه أخوه أبو بكر.[٤]

فهؤلاء أعلام ستة ساهموا بحظ كبير في خدمة الحديث النبوي، وقدموا إلى أمة الإسلام أسفارا قيمة ذاع صيتها شرقا وغربا، ونزلت من قلوب الناس عامتهم وخاصتهم شعاب الود والتقدير،

---

[١] تاريخ ابن عساكر ٣/١٩٦.

[٢] تذكرة الحفاظ ٢/٦٣٦.

[٣] سير أعلام النبلاء ١٣/٢٢٨–٢٢٩.

[٤] وفيات الأعيان ٤/٢٧٩.

وأخذت منها مآخذ الحب والتبجيل، وعاشوا كلهم في القرن الثالث الذهبي، الأمر الذي يومئ إلى ما بذل في هذا القرن الميمون من الجهود والمحاولات والأوقات والطاقات لخدمة السنة النبوية.

ولخدمة السنة ساحات وميادين ذكرتها في مقتبل المقال، وتسليط الضوء على كلها في مثل هذا المقال أمر لا يطاق، وبما أن ساحة التلقي والحفظ والاختبان والتخزين والصيانة بالقلب أو الكتاب أكثر أهمية، وأسنى منزلة فإني محورت حديثي حولها، وصارحت بجوانب حياة بعض من أعلام المحدثين الذين هم أئمة هذا الشأن، وهذا يسفر لنا عن غاية الجهود التي بذلت، وشدة العناء الذي كوبد في القرن الثالث بوجه خاص.

ولم تنحصر الخدمات الحديثية في هذه النفوس الزكية، بل هناك سواد عظيم ممن خدم الحديث النبوي وواصل ليله بنهاره في جمع الأحاديث وتخزينها، وتبليغها إلى الناس بأمانة وربانية:

كأبي يعلى أحمد بن علي، صاحب "المسند الكبير"، توفي سنة ٣٠٧هـ، والإمام محمد بن عمرو العقيلي، صاحب "كتاب الضعفاء الكبير"، توفي سنة ٣٢٢هـ، وإمام الجرح والتعديل أبي زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي، توفي سنة ٢٦٤هـ، قال الذهبي: كان من أفراد الدهر حفظا وذكاء ودينا وإخلاصا، وعلما وعملا، وأمير المؤمنين في الحديث حافظ نيسابور أبي عبد الله محمد بن يحيى الذهلي، عن أحمد، قال: "ما رأيت أحدا أعلم بحديث الزهري من محمد بن يحيى، مات في ربيع الأول سنة ٢٥٨هـ، والإمام الحافظ أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، توفي سنة ٢٥٥هـ، يضرب به المثل في الديانة، والحلم، والاجتهاد، والعبادة، وغيرهم كثير، فقس على هذا المنوال، فإنما ذكرت مجرد مثال، ولا أطيق الاستيعاب على أي حال.[١]

ولو ألقي الضوء على رحلات هذه السمات السعيدة في طلب الحديث، ومعاناتهم ومقاساتهم في هذا السير الحثيث، لكان أكثر إيضاحا لجهودهم المضنية، وأحسن تعريفا بأعمالهم الجليلة وإنما اكتفيت بهذا القليل الضئيل، مخافة الإملال والتطويل، واتقاء مزج المطلوب بالدخيل، وعلى الله قصد السبيل، ومنه العون لكل عمل فضيل.

***

[١] أخذت هذه التراجم من اتحاف الكرام ص٤٦٥–٤٧١.

محاضرة علمية بعنوان: "تعليم اللغة العربية في ضوء طرق التدريس الحديثة"

للشيخ أسعد الأعظمي / حفظه الله وتولاه

تقرير: عبيد الله الباقي عبد السلام
السنة الثانية للفضيلة
الجامعة السلفية، بنارس

هذه مقتطفات من محاضرة علمية بعنوان "تعليم اللغة العربية في ضوء طرق التدريس الحديثة" ألقاها شيخنا المكرم أمام طلاب الجامعة السلفية في "قاعة المحاضرات" بعد صلاة المغرب يوم الخميس ٦/ ربيع الأول ١٤٣٢هـ المطابق ١٠/٢/٢٠١١م، جزاه الله أحسن الجزاء.

بعد الحمد والصلاة تلا شيخنا الموقر آية قرآنية: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين) [الروم: ٢٢] وقدم كلمات الشكر والتقدير إلى فضيلة رئيس الجامعة الدكتور جاويد أعظم/حفظه الله ورعاه، الذي تولى رئاسة هذه الجلسة المباركة الميمونة.

بدأ الشيخ الموقر محاضرته القيمة مشيرا إلى الأسباب التي دعته إلى إلقاء هذه المحاضرة، فمنها السؤالات التي يطرحها الطلاب أمامه بين حين وآخر عن إتقان اللغة العربية ووسائله المفيدة، ومنها طلب أعضاء "ندوة الطلبة" لتحقيق آمال الطلاب في هذا الخصوص، فوافق الشيخ على طلبهم، وأبدى استعداده لإلقاء المحاضرة، وجاء اليوم السعيد الذي قدم فيه هذه المحاضرة كثيرة الفوائد الهامة ووفيرة المعلومات القيمة، وأسرد القول بأن الطلاب لا يعنون باللغة العربية حق العناية فهم لا يستطيعون بالنطق السليم والتكلم الصحيح، ويتحيرون في اختيار الكلمات والأساليب المناسبة عند التكلم بهذه اللغة، ويفشلون عن التعبير عما في أذهانهم، مع أن النطق والتكلم أمر لا يجوز إهماله بأي وجه من الوجوه، بل هي حاجة ماسة تمس كل أحد لأن العالم أصبح كقرية صغيرة قربت إنسانا من إنسان، وقلصت المسافات بين الناس ووسعت علاقات إنسانية، ووثقت روابط بشرية فلابد من إتقان اللغة المطلوبة وتجويدها من كل ناحية من النواحي.

تدارك الوضع المؤسف للغة العربية في المدارس الهندية:

قد تكلم شيخنا الفاضل على هذه النقطة المهمة بأسلوب معجب فريد، فقال: "أما تعليم اللغة العربية والتمكن منها بجميع مهاراتها، فلها أصول وضوابط ولابد من الاهتمام بها كل اهتمام والعناية بها كل عناية، وهي لا تختص بلغة دون لغة، بل إنها تجب مراعاتها في تعليم كل لغة من اللغات، ومعروف أن اللغة الإنكليزية قد تقدمت تقدما، وانتشرت انتشارا واسعا، لأن الإفرنجيين الغالبين كانوا ولا يزالون يحاولون كل المحاولة لنشر لغتهم بين الأمم، وكذلك لتعلم لغة الدول المغلوبة والتمكن منها، وإنهم يحرصون على ترويج لغاتهم وحضاراتهم لدى الآخرين لكي ينشبوا مخالبهم القوية فيهم، وتثبت أقدامهم في هذه الساحة، فهكذا سيطروا على دول عديدة إلى مدد طويلة.

وإنهم جربوا – لنشر لغاتهم – طرقا وأساليب متعددة واحدة تلو أخرى، منها الطريقة المباشرة، وطريقة القراءة، والطريقة السمعية الشفوية والطريقة المعروفة بطريقة القواعد والترجمة، وغيرها، ومعظم هذه الطرق تركز على الجانب المسموع والمنطوق من اللغة لأهميته في الاتصال والتفاهم، وكذلك تشجع هذه الطرق على منع أو تقليل استعمال اللغة الأم للطالب في أثناء تعليم اللغة الأجنبية.

ويرى المتخصصون أن تعليم اللغة يجب أن يسير لخلق أربع مهارات بالترتيب: الأولى: الاستماع والفهم، الثانية: النطق والتكلم، الثالثة: القراءة، الرابعة: الكتابة.

ولكن الملاحظ في مؤسساتنا التعليمية أن جل الاهتمام ينصب في تعليم القراءة والكتابة للغة، أما مهارتا الاستماع والتكلم فمهجورتان، وهذا أمر يعيق عن فهم اللغة فهما كاملا.

وقد أشار شيخنا الكريم إلى أن اللغات تنقسم إلى قسمين "ألف" اللغة الحية "ب" اللغة نصف الحية، فالأولى هي التي لا تستعمل في الأمور الدينية والعلمية فقط، بل في المجالات كلها، وتتكلم بها عامة الناس في سائر الحاجات، والثانية: هي التي لا تستعمل إلا في المناسبات الدينية والعلمية فقط.

فنحن بإهمالنا جانب الفهم والنطق أدخلنا اللغة العربية في القسم الثاني مع أنها من القسم الأول بلا ريب، فلابد من النظر إلى هذه الناحية المهمة وأخذها بعين الاعتبار.

أسباب ضعف التكلم باللغة العربية:

١- دوافع تعلم اللغة العربية:

إن معظم الطلاب يتعلمون اللغة العربية لفهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والكتب الإسلامية، والحمد لله على أن هذا المقصود حاصل، ولكن الحاجة الآن أصبحت قائمة للاتصال مع الناطقين بهذه اللغة، فلا يمكن التقليل من أهمية هذا الجانب.

٢– انتشار طريقة القواعد والترجمة:

فهذه سائدة في أنحاء العالم كلها، وهي تعتمد على حفظ المفردات والقواعد، وقاموس ثنائي اللغة مع الاهتمام بالترجمة من وإلى اللغة الأم، ولا تلقي بالا إلى جانب الفهم والمحادثة كثيرا.

٣– طريقة التدريس:

طريقة التدريس المعتمدة في المدارس تقوم على ترجمة الكتب العربية إلى اللغة المحلية، سواء كانت كتب القواعد من النحو والصرف أو الكتب الدينية من التفسير والحديث والفقه، ولو تم تدريس كلها أو بعضها باللغة العربية كان له مردود إيجابي في تعليم اللغة.

٤– الإسراف في استخدام اللغة الأم في أثناء التدريس:

فهذه من العوائق الكبيرة من التقدم في اللغة المطلوبة والنطق والتكلم بها، فينبغي للمدرس أن يتوجه إلى هذا الجانب المهم.

٥– كتب النحو والصرف في اللغة الفارسية وغيرها:

وكان هذا داء متفشيا في السابق، ولكن الآن بحمد الله ورحمته قد نُقلت كثير من كتب النحو والصرف إلى اللغة الأردية، وكذلك أدخلت كتب عربية ميسرة في المناهج، فسهل على الطلاب فهم القواعد والأصول وإتقان اللغة العربية.

معالجة أسباب ضعف التكلم باللغة العربية:

قال الشيخ المكرم: "إني أرى أن يمكن إزالة ضعف الفهم والتكلم بطرق عديدة:

الطريقة الأولى: "ألف" تلاوة القرآن الكريم بالتدبر والتفكر وكذلك الاستماع إليه في الصلوات وخارجها بالإمعان والتدبر، "ب" الاستماع إلى الكلمات التي تلقى في الحفلات الأسبوعية بتفكر، "ج" اجتماع الطلاب في مكان واحد، وتكليفهم واحدا منهم بقراءة كتاب باللغة العربية، وتدبر جميعهم في كلماته الملفوظة "د" تصحيح المخارج لأن اللغة العربية هي لغة الضاد ولكل حرف مخرج، فلابد من أدائه بالطريقة الصحيحة.

الثانية: قضية الإعراب وقال شيخنا المكرم: "إن اللغة قسمان "ألف" إعرابية "ب" غير إعرابية، واللغة العربية لغة إعرابية.

فلابد من الاهتمام بصحة الإعراب وتطبيق قواعد النحو والصرف في كل ما ينطق ويقرأ ويكتب.

الثالثة: البدؤ بالأقرب فالأقرب سواء في التكلم أو في الكتابة.

الرابعة: الاهتمام بالمحادثة والحوار في اللغة العربية.

والخامسة: الإقلال من استخدام اللغة الأم في التكلم.

وكذلك تطرق الشيخ إلى قضايا تتعلق بالكتابة، وإلى قضية تحليل الأخطاء.

وبعد ذلك قدم الشيخ المبجل إلينا توجيهات أخرى قيمة مفيدة في باب إتقان اللغة العربية، وأجاب على الأسئلة المطروحة عليه إجابة تشفي العليل وتروي الغليل.

اللهم تقبل خدمته الجليلة وأكرمه بالمثوبة الجزيلة، إنك أنت ولي التوفيق وإليك المستعان وعليك التكلان.

***